المذهبات

من تراثنا التربوي

المُذهِبَاتُ

مِنْ تُرَاثِنَا التَّرْبَوِيِّ

فَايِز بن سَعِيد الزَّهْرَانِي

حقوق الطبع محفوظة

ح **شركة افاق المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٤١هـ**

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الزهراني، فايز سعيد صالح

المذهبات من تراثنا التربوي. / فايز سعيد صالح الزهراني - الرياض، ١٤٤٠هـ

ص ٢٧٠؛ ١٤×٢٠ سم

ردمك: ٨-٥-٩١١٦١-٦٠٣-٩٧٨

١- التربية -

أ. العنوان

ديوي ١, ٣٧٠ ١٤٤٠/٣٥٥٠

رقم الإيداع: ١٤٤٠/٣٥٥٠

ردمك: ٨-٥-٩١١٦١-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الثانية

١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

العنوان	الصفحة
مدخل	٩
تعليم التربية	١٥
أسانيد التربية	٢٩
الباب الأول	٤٣
تربية العقل الناقد	٥٥
تربية العقل الإبداعي	٧٣
تنمية الطاقات	٨٧
رعاية الحاجات	١٠١
صناعة الرجال	١١٥
المحكمات التربوية	١٢٩
الإنتاج بين الميول والاحتياج	١٤١
إكسير التربية	١٥١
أبناء الآخرة	١٦٣

تربية الإرادة ١٧٥
أدب المدينة ١٨٧
اللبنة الأولىٰ ١٩٩
البر ثمرة التربية ٢١١
التربية الفردية ٢٢٣
ديوان العرب ٢٣٥
تأثير اللسان في استقامة الإنسان ٢٥١
فقه السيرة ٢٦١

مدخل

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علىٰ إمام المرسلين، وعلىٰ آله وأزواجه وأصحابه أجمعين.

التربية عمود الحضارات.

منها تنشأ الحضارات، وبها تقوم، وعلىٰ قدر متانتها يعتمد ارتفاعها، وبثباتها يطول عمرها.

ومنذ اللحظة الأولىٰ التي التقىٰ فيها جبريل بمحمد عليهما الصلاة والسلام في غار حراء تأسس هذا المعنىٰ في أدبيات الدعوة الإسلامية، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، بل إنَّ الله تعالىٰ ربىٰ نبيه محمداً ﷺ قبل أنْ يبعثه ليهيئه لرفع قواعد الدعوة الإسلامية، ومنْ ذلكم يتمه، ورعيه للغنم، وعمله في التجارة وسفره إلىٰ الشام، وتحمله للمسؤوليات، وحياته مع الكبار كعبد المطلب وأبي طالب، وتحنثه في غار حراء قبيل مبعثه.

ولم يفتأ فقهاء التربية الإسلامية من متقدمي هذه الأمة ثم متأخريها ثم معاصريها ينقلون لنا علمهم وخبرتهم في هذا الباب من الفنون،

مستهدين بهدي القرآن، ومستنين بسنة رسول الله ﷺ، فكانت الأمة في كل مرة تغفو يبعث الله فيها هؤلاء الجهابذة ليوقظوا وجدانها، وليصححوا مسارها، وليغرسوا فيها الفضائل وعاداتِ الخير.

وإني لأعتقد أننا نملك إرثًا تربويًا متين البنية، شديد اللمعان، كالبيض اليمانية، لكننا كسالىٰ بما فيه الكفاية، كسالىٰ علىٰ مستوىٰ البحث والسبر، وكسالىٰ علىٰ مستوىٰ التحليل والتفكير، وقد استعضنا عن كثير منه بالنظريات التربوية الغربية الحديثة.

أتفهَّمُ حاجة الغرب إلىٰ التنظير التربوي، لأنه لا حضارة بدون تربية، وحيث تخلوا عن الشرائع ورفضوا الدين باعتبار العَلْمانية مرتكزاً من مرتكزات حضارتهم؛ لزم من ذلك تشييد بناء جديد من النظريات ليؤسسوا عليها علومهم وحضارتهم، فكانت التربية بحاجة إلىٰ إنتاج علم يقوم علىٰ نظريات جديدة وليدة، فأصاب منها ما أصاب، وأخطأ منها ما أخطأ.

لكني لا أتفهم أبداً كل هذا العزوف من بعض شباب الإسلام لما دوَّنه فقهاء التربية الإسلامية، تأصيلاً وتفريعًا، وما قدموه من جهود وأعمال تربوية، تأسيسًا وممارسة، واعتقاد أنَّ التربية فنٌّ تفوَّق الغرب علينا فيه، فانكبوا علىٰ الإنتاج الغربي يتلقفونه بنَهَم، كالجائع علىٰ مائدة الملوك، وكالتائه في طرَف المفازة.

هذا لا يعني - بالتأكيد - التنفير المطلق من تعلُّم التربية الغربية الحديثة، فلستُ أقصد ذلك، ففيها الصواب كما فيها الخطأ، ولكني أقصد أنْ تكون هي قبلة المربي التي يتوجه إليها، وضوءه الذي يستنير به، مُخلِّفًا وراء ظهره أعظم برنامج تربوي، لا يستنير به، ولا يميم وجهه شطره، حتىٰ صرنا كأننا أمة منبتَّة الصلة بالماضي، كأننا بلا جذور، بلا امتدادات، بلا تاريخ.. بل كأننا بلا حضارة، وحتىٰ صرنا كاليتامىٰ في أحضان الغرباء، وكالمساكين في حضرة الأثرياء، فيا ويحنا! كأننا لم ينزل علينا قول الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]. والله إنَّ ما ورثته حضارة الإسلام من المعارف والفنون التربوية أعلىٰ مما قدمته الحضارة الغربية في ذلك.

كم نحن بحاجة إلىٰ دراسات استقصائية وصفية تحليلية لجهود الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ في العمل التربوي! فقد قدم إرثًا هائلاً علىٰ مستوىٰ التنظير والتطبيق والممارسة.

كم نحن بحاجة إلىٰ هذي الدراسات عن المدارس الإسلامية في التاريخ الإسلامي: البيئة، والمنهج، والإدارة، والمخرجات!

كم نحن بحاجة إلىٰ هذي الدراسات لتاريخ التربية الإسلامية في المدن الإسلامية المهمة، وعبر العصور المختلفة: الكوفة والبصرة

ودمشق والفسطاط ومكة والمدينة وحمص وبغداد والقاهرة والقيروان وغرناطة وغيرها...!

وغير هذا كثير. وهنا أفتح القوس لأشير إلىٰ أنَّ حقيقة التجديد تكمن في إظهار القديم علىٰ حالته التي كان عليها وهو جديد، بتنقيته مما شابه، وبتجليته للناس نقيـًا صافيـًا بعد أنْ دُرس وكاد يمحىٰ.

وقد وفقني الله تعالىٰ لكتابة بعض الموضوعات التربوية، بنيتُ كل موضوعٍ منها علىٰ قولٍ لأحد فقهاء التربية الإسلامية، ونشرتها تباعـًا في مجلة البيان، التي أتاحت لي ذلك مشكورة، فأحببت ضمها بعضها إلىٰ بعضٍ، وتنقيحها، وإعادة ترتيبها بما هو أكثر مواءمة، ونشرها في كتاب واحد، في عشرين موضوعـًا؛ ليست هي علىٰ سبيل الحصر، ولربما يسعفني الزمان – بعد توفيق الله تعالىٰ – لتكرار هذا العمل مع طائفة أخرىٰ من درر فقهائنا، رحمهم الله.

وسميتها بـ(المذهبات من تراثنا التربوي)، وأعني بذلك أنَّ هذه الموضوعات مُذهَّبة بأقوال فقهاء التربية الإسلامية، باعتبار تلك الأقوال التي تنم عن خبرة تربوية من عالم الشريعة: ماء الذهب، الذي يموَّه به المتاع فيصبح مذهَّبـًا، وكذلك هذه الموضوعات: هي مجرد سطور منثورة، غير أنها اكتسبت التذهيب من تلك الأقوال المأثورة. والحقُّ أنَّ أقوالهم تستحق أنْ تكتب بماء الذهب، فرحمهم الله ورضي عنهم وأرضاهم.

والله تعالىٰ المسؤول أنْ يجعل (المذهَّبات) ذخراً لي أنتفع به يوم الحساب، وأنْ ينفع به قارئه، وأنْ يكتب له القبول عنده، والقبول بين عباده.. آمين.

وكتبه

فَايز بْن سَعِيْد الزَّهْرَاني

Fa2526@hotmail.com

غرة ربيع الآخر ١٤٤٠هـ

تعليم التربية

(تفقهوا قبل أنْ تُسوَّدوا)[1].

بهذه العبارة خَّط لنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ قانون تأهيل المربين وإعدادهم. وعمر بن الخطاب ﷺ هو الرجل الذي جعل من التعليم إستراتيجية أولية في بناء الدولة الإسلامية، حيث كان العلم حاضراً في أغلب شؤون سياسته للدولة، وأصبحت في عهده حواضر الدولة الإسلامية مراكز تعليمية: دمشق والكوفة والبصرة والمدينة ومكة، وانتشر المعلمون في الهجر والبوادي، ورُسمت لهم الرواتب... إلىٰ غير ذلك من السياسات والإجراءات التي وضعها هذا الملهم في بناء الدولة العلمية[2].

قانون (التفقُّه قبل التسيُّد) يمثل خلاصة تجربته وعصارة خبرته ﷺ، وهو قانون جدير بالدراسة والتأمل، وهو يتضمن معنىٰ التدرج في الانتقال من حالة الأخذ إلىٰ حالة العطاء.

وفي سياق التأهيل التربوي للمربين يرسم هذا القانون طريق الانتقال من حالة التلقي والاستفادة إلىٰ حالة العطاء التربوي، وهي

(١) البخاري ١/ ٤٣ كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة.
(٢) الدور العُمري في مجال التربية والتعليم مما يستحق أنْ تُفرد له الدراسات المتخصصة وصفاً وتحليلاً واستنباطاً.

ظاهرة المعنىٰ في أنه لا يصلح لأنْ يكون قائداً في الأعمال التربوية - سواء كان معلماً أو مشرفاً أو مديراً - إلا بعد أنْ يتلقىٰ القدر الكافي من التأهيل التربوي؛ حتىٰ يصبح فقيهاً في التربية، قادراً علىٰ التأصيل، قادراً علىٰ حل النوازل والمشكلات، قادراً علىٰ تشييد البناء وصناعة الرجال، فعند ذلك يصبح المربي (سيداً). قال وكيع: (يعني قبل أنْ تجلِسوا للناس، فتُسألوا)[1]، والجلوس للطلاب والطالبات والتصدي لسؤالاتهم ومعالجة قضاياهم وبناء شخصياتهم يستدعي مخزوناً كافياً من المفاهيم والمعارف، مما يتطلب جهداً سابقاً في التفقه والتعلم.

إن التفقه والازدياد من العلم الشرعي والتربوي مفضيان إلىٰ أهلية التصدر للعمل التربوي، والتي تحمل معنىٰ من معاني السيادة والرئاسة، حيث التمكن من التوجيه والتأثير وإصدار القرارات وقيادة المجموعات، وحينها يغتبط صاحبها بما يملكه من معارف ومهارات تعينه علىٰ تجويد عمله التربوي. قال ابن المنيِّر: (وجه مطابقة قول عمر ﷺ للترجمة [يقصد تبويب البخاري رحمه الله: باب الاغتباط في العلم والحكمة] أنه جعل السيادة من ثمرات العلم، وأوصىٰ الطالب باغتنام الزيادة قبل بلوغ درجة السيادة، وذلك يحقق استحقاق

---

(١) الزهد، ص٣٢٧.

العلم، لأنه يُغتبط به صاحبه، لأنه سبب سيادته)[1]. وعقَّب عليه بدر الدين العيني بقوله: (لا شك أن الذي يتفقه قبل السيادة يُغبط في فقهه وعلمه، فيدخل في قوله: باب الاغتباط في العلم)[2].

الصف الخداج

حماسة العاملين في الإدارة التربوية لإقامة البرامج وتشييد المشاريع واستقطاب الطلاب قد يدفعهم إلىٰ أنْ يصدِّروا لتربية الطلاب من لم تكتمل أهليتهم لهذا العمل استعجالاً واندفاعًا.

وكذلك عجز الإدارة عن استيعاب شرائح الطلاب الموجودة بين أيديهم قد يدفعهم للتنازل عن شروط التأهيل التربوي، فيجدون أنفسهم مضطرين لدفع غير المتأهلين إلىٰ ميدان العمل التربوي المباشر مع الطلاب.

وسبب ثالث وهو تهيؤ الفرصة لإقامة البرامج التربوية، من جهة إقبال الطلاب والطالبات علىٰ المحضن التربوي، قد يدفع الإدارة إلىٰ الزجِّ بمن لم تكتمل أهليتهم لإدارة المجموعات الطلابية، ومعالجة قضاياهم التربوية، خوف فوات هذه الفرصة السانحة.

---

(١) المتواري علىٰ أبواب البخاري، ص٦٠.
(٢) عمدة القاري ٢/ ٥٤.

هذه ثلاثة أسباب، وغيرها كذلك، قد تفرز جيلاً من المربين لم تكتمل فيهم أهلية القيام بمباشرة العمل التربوي مع المجموعات الطلابية، وهي أسباب تبدو منطقية تُسوِّغ للإدارات التربوية إجراءاتهم الإدارية، وأما في حقيقة الأمر فإنَّ الاستجابة لها علىٰ النحو الذي ذكرته قد يفضي إلىٰ خطأ بعيد المدىٰ، وهو إنتاج صفٍّ من المربين غير مؤهلين التأهيل الكافي لممارسة الدور التربوي، وتأثير ذلك سلبًا علىٰ جودة المخرجات التربوية لا يخفىٰ.

إنَّ الترؤس بلا فقه، والقيادة بلا معرفة، وتربية النشء بدون آلة مكتملة؛ مسألةٌ ذات بعد إستراتيجي، إذ العلم ركيزة من ركائز الانطلاق، وبتخلف هذه الركيزة سيضعف الدور المنوط بالمربي، قال سفيان الثوري رحمه الله: (من ترأس في حداثته كان أدنىٰ عقوبته أن يفوته حظ كبير من العلم)[1].

وصعوبة استدراك ما فات من المعرفة والمهارة بعد الترؤس مشكلة سيعاني منها من استيقظ ضميره، وحاول اللحاق، قال النووي رحمه الله: (تفقهوا قبل أن تسودوا معناه: احرصوا علىٰ إتقان العلم والتمكن في تحصيله وأنتم شُبان لا أشغالَ لكم ولا رئاسةَ ولا سنَّ، فإنكم إذا كبرتم وصرتم سادةً متبوعين امتنعتم من التفقه

(١) العزلة للخطابي، ص٨٣.

والتحصيل)[1]، فتضعفوا، ويزداد ضعفكم حتىٰ يخفت بريقكم، وينطفئ وهجكم. ولهذا قال الشافعي رحمه الله: (تفقه قبل أن تَرْأَس، فإذا ترأست فلا سبيل إلىٰ التفقه)[2].

أيضـًا فإنَّ هذا الصف الخداج سيتحول بعد مدة من الزمن من ممارسة الأدوار الصفية داخل المحاضن إلىٰ قيادة المهام الإشرافية ذات البعد المفاهيمي والوجداني، وحينها سيجدون أنفسهم عاجزين عن الوفاء بمتطلبات هذه المهام الإشرافية.

إنَّ الترؤس قبل التفقُّه ربما تكون خطيئة إستراتيجية سنتجرع علقمها بعد مدة، حين يُقبض علم التربية بموت أصحابه وذهابهم، حتىٰ إذا ساد العملَ التربوي مَنْ لم تكتمل أهليتهم، ولم تنضج خبراتهم؛ فحينها سيتخرج في محاضننا التربوية الطلاب الضعفاء، والسلبيون والكسالىٰ، ومن ليسوا قادرين علىٰ حمل الرسالة علىٰ وجهها، ولا قادرين علىٰ أخذ الكتاب بقوة.

التعلُّم المستمر

بالتأكيد فإن الدعوة إلىٰ التفقه والتعلم قبل ممارسة التربية ليس إقراراً بحتمية التوقف عنهما عند الممارسة، ولكن من فاته ذلك من قبل فليس بمستدرك بعده كل ما فاته؛ كما بينت آنفـًا.

---

(١) بستان العارفين، ص٤١.

(٢) الفقيه والمتفقه ٢/ ١٥٢.

ومن المهم لفت عناية المربي إلىٰ أنَّ انشغاله بالعمل التربوي لا يجيز له التوقف عن التعلم والتفقُّه، ولا يأذن له في طيِّ كتب العلم وإغلاق باب مكتبته، وقد قال الله تعالىٰ لنبيه ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]. إنَّ التعلم وتحديث المهنة ليسا مرحلة لها بداية ونهاية، وإنما هما وظيفة العمر إلىٰ الممات، قال صالح ابن الإمام أحمد بن حنبل: (رأىٰ رجلٌ مع أبي مِحْبَرَة، فقال له: يا أَبا عبد الله! أنت قد بلغت هذا المبلغ، وأنت إمامُ المسلمين! فقال الإمام أحمد: مع المِحْبرة إلىٰ المَقْبرة). وبينما كان محمد بن إسماعيل الصائغ يصوغ مع أَبيه ببغداد، إذْ مرَّ بهما الإمام أحمد وهو يعدو ونعلاه في يده، يسابق الشباب الصغار إلىٰ حلقة العلم، فأَخذ أبو محمد بمجامع ثوب الإمام أحمد، فقال: (يا أَبا عبد الله! أَلا تستحي! إلىٰ متىٰ تعدو مع هؤلاء الصبيان؟ قال: إلىٰ الموت)[1].

لقد وضعت القلم مشدوهـًا، وحاولتُ أنْ أرسم صورة في ذهني لهذا الموقف.. موقف إمام أهل السنة، وصاحب المسند، وعملاق الصمود، إذ يجري مع الصبيان، حافية قدماه، ممسكـًا بنعليه، يسابقهم إلىٰ حلقة العلم. ماذا أبقيت لماء وجهي يا أبا عبد الله! قدَّس الله تعالىٰ روحك، وأعلىٰ نزلك، وجزاك خير ما جزىٰ معلِّمـًا عن طلابه. آمين.

---

(١) مناقب الإمام أحمد، ص٣٦.

إنه يقول بلسان حاله: لا ينبغي للظروف العارضة أنْ تمنعك من تعلُّم المفيد، ولا ينبغي أنْ تمنعك من أنْ تكون متجدداً، ولذا عقب البخاري رحمه الله علىٰ قول عمر ﷺ: (تفقهوا قبل أنْ تسودوا) بقوله: (وبعد أنْ تسودوا. وقد تعلَّم أصحاب النبي ﷺ في كبر سنهم)[1].

التعلُّم المستمر سمة المربي الناضج، الذي يدرك خطورة العمل الذي يمارسه، ويدرك الأثر الإستراتيجي لتحديث معارفه ومهاراته. وبما أنَّ ميدان التربية هو الإنسان؛ فإنَّ كثيراً من المتغيرات تطرأُ علىٰ ظروفه ومحيطه، مما يتطلب من المربي مواجهة ذلك بمزيد من الحكمة والنضج، ولا يكون ذلك بدون تعلُّم مستمر، يضمن سلامة منهج التربية، ويحدد بوصلة الطرائق والأدوات.

والمربي الناضج يدرك أيضاً خطورة جموده وتركه للتعلم الموازي لعمله، إنه يستشعر مسؤوليته تجاه نفسه بقدر ما يشعر بمسؤوليته تجاه طلابه ومحضنه.

ما عدا ذلك فهو إيذان بانهيارات تربوية تطال الطلاب والمحضن والبرامج، بل ربما تطال المنهج.

---

(١) الصحيح ١/ ٣٤ كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة.

كم من مربٍّ تقدم به السن، وتكالبت عليه العلائق والعوائق، ولا يزال يحتفظ بروح شابة متجددة مواكبة! فهل لديكم تفسير لهذا الأمر غير اهتمامه بنفسه تعلمـًا وتحديثـًا لمعارفه ومهاراته!؟

والشيخوخة والهرم سُنتان ظاهرتان في هذا الكون، في الأحياء، وفي المشاريع، وفي الأفكار، وفي الأعمال.. ولبقاء الحياة لا مناص من التجديد الذي يعيد الوهج والحياة والأمل إلىٰ كل هذه الأشياء التي تشيخ، وبالنسبة للمربي فإن التعلُّم من أقوىٰ وسائل التجديد التي تعيد حيويته التربوية.

إنتاج المربين

نحن اليوم أمام مهمة ملحَّة، ومن غير المستحسَن تأجيلها، وهي تخريج مربين بأفضل المواصفات والمعايير، قادرين علىٰ ممارسة التربية في المحاضن وقيادتها.

نحن اليوم بحاجة إلىٰ أنْ تكون أولوية إنتاج المربين وفق معايير وشروط ومواصفات في نفس الدرجة التي تسكن فيها أولوية تربية الناشئة من سلم الأولويات الدعوية.

وهي مهمة ملقاة علىٰ عاتق الإدارات التربوية، ومراكز الإشراف، ومعاهد التعليم بالدرجة الأولىٰ، إذ هي مواطن هذه المهمة، وهي المواقع المنطقية لعمل هذا النوع من البرامج.

وبادئ ذي بدء يجب أنْ يكون لدىٰ المربين تعريفٌ واضحٌ ومحددٌ للمربي: من هو؟ وماذا يعمل؟ وسيكون هذا التعريف مفتاحاً أولياً لرسم خطة الإنتاج.

ثم ننطلق بعد ذلك في نقاط واضحة نحدد مواصفات المربي بموضوعية، لأن هذه المواصفات ستتحول بعد ذلك إلىٰ أهداف تربوية لإنتاج المربين، ومن المهم في هذه الخطوة التفريق بين مواصفات تقع موقع الشرط، وبين مواصفات واجبة لكنها لا تقع موقع الشرط، أيْ أنَّ هناك مواصفاتٍ للمربي لا ينبغي التنازل عن اكتمالها فيه، كاستقرار الشخصية مثلاً، وهناك مواصفاتٌ قد نرتضي للمربي منها حداً أدنىٰ، كالقدرة علىٰ التفكير الإبداعي.

ومواصفات المربي تشمل عدداً من جوانب شخصيته: الجانب النفسي، والجانب العلمي، والجانب العقلي، والجانب الجسدي، والجانب الروحي الإيماني، والجانب الاجتماعي، والجانب العملي.

وفي كل جانب من هذه الجوانب تكمن العديد من المعارف والمهارات والاتجاهات؛ إذا ما تم حصرها وتصنيفها وترتيبها في ورش عمل وحلقات نقاش وأوراق عمل؛ فإننا سنحصل علىٰ الخام الذي يتشكل منه (المربي).

و(المربي) وظيفة من أهم وظائف الدعوة إلىٰ الله، والعمل لهذا الدين، ولمنزلتها العالية فإنها تتطلب شروطاً لا تقبل التساهل

والتهاون في تعيين الأفراد عليها، وهذا يعني أنني أفترض أن الذين تخرجوا في برامج تأهيل المربين ينبغي أنْ يُعرَضوا علىٰ الشروط والمعايير الخاصة بالتربية في المحاضن، لتتم إجازتهم من عدمها. إننا سنكون بحاجة إلىٰ إيجاد مسارات تربوية ذات شروط أخف ومعايير أقل، لتوجيه المربين الملائمين إليها، والإفادة منهم فيها.

وتربية الأطفال تختلف عن تربية المراهقين، والتربية في المحاضن الصغيرة تختلف عن التربية في المحاضن الكبيرة، والتربية المتخصصة تختلف عن التربية العامة.. كل أولئك بينها فروق كما أنَّ بينها نقاطًا جامعةً، وعليه فإننا - إذ نعمل علىٰ إنتاج المربين - بحاجة إلىٰ رسم مواصفات المحضن ومعاييره وشروطه.

وفي زمن التكنولوجيا وسهولة الحصول علىٰ المعلومة وسهولة المتابعة؛ فإنَّ إنشاء منصة إلكترونية توفِّر - علىٰ الأقل - المتطلبات العامة لإنتاج المربين من المعارف والمهارات؛ يعدُّ من الواجبات المتحتمات علىٰ الإدارات التربوية، إذ كثير ممن يمارس التربية في المحاضن هم أشخاص فاعلون مؤثرون، لكنهم لا تربطهم بالمؤسسات القريبة منهم أو الحاضنة لهم رابطة التعلُّم.

ومن اللافت للانتباه - أيضًا - ازديادُ وعي الأسر بأهمية التربية، وحرص الكثيرين من الآباء والأمهات علىٰ تربية أولادهم بشكل سليم، ومعالجة قضاياهم بطريقة صحيحة، وسيكون لهذه المنصة

الإلكترونية تأثير بالغ الإيجابية علىٰ أدائهم التربوي، وبهذا نكون أصبنا مرَّتين: مرة حين أفدنا المعلمين والمعلمات، ومرة حين أفدنا الآباء والأمهات.

فهل من مبادرات تنطلق في هذا الاتجاه؟

* * *

أسانيد التربية

(لا يؤخذ العلم إلا ممن شُهد له بالطلب)[1].

هذه القاعدة العظيمة أسندها الخطيب البغدادي إلىٰ الإمام الحافظ عبد الرحمن بن يزيد بن جابر الأزدي الدمشقي، رحمهما الله تعالىٰ.

وهي قاعدة من قواعد تلقي العلم، تتعلق بالأستاذ والمحدث وبمن يُتلقىٰ عنه العلم، وهي تعني اشتراط تلمذة الأستاذ والمحدث من قبل، وأنْ يُعرف عنه ذلك، وأنه ليس ممن تلقىٰ علمه من قراءة الكتب فحسب، وإنما زاحم أهل العلم في مجالس الطلب والتعلم والتلمذة.

وذلك ليكون العلم متنقلاً بين الأجيال بواسطة الرجال، الذين علِموه وفهموه وحملوه وحصنوه وأدوه إلىٰ من بعدهم، منذ مبعث نبينا محمد ﷺ إلىٰ أنْ يرث الله الأرض ومن عليها. وهو بهذه الصفة يكون نقيـًا مصفىٰ لا تعكره الشوائب ولا الدخائل ولا المحدثات، ولا تنحرف بوصلته، ولا يُستخدم للأغراض والأهواء.

---

(١) الكفاية في علم الرواية، ص٨٧.

الشاطبي يشترط المعلم المتربي

والشاطبي - رحمه الله تعالىٰ - يُبين عن كوامن هذه القاعدة، فيقول[1]: (من أنفع طرق العلم الموصلة إلىٰ غاية التحقق به أخذُه عن أهله المتحققين به علىٰ الكمال والتمام).

ثم يقول: (وإنْ كان الناس قد اختلفوا: هل يمكن حصول العلم دون معلم أم لا؟ فالإمكان مسلَّم[2]، ولكن الواقع في مجاري العادات أنْ لا بد مِن المعلم، وهو متفق عليه في الجملة، وقد قالوا: إنَّ العلم كان في صدور الرجال، ثم انتقل إلىٰ الكتب، وصارت مفاتحه بأيدي الرجال.

وهذا الكلام يَقضي بأنْ لا بد في تحصيله من الرجال؛ إذ ليس وراء هاتين المرتبتين مرمىٰ عندهم، وأصل هذا في الصحيح: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس، ولكن يقبضه بقبض العلماء» الحديث[3]، فإذا كان كذلك؛ فالرجال هم مفاتحه بلا شك). فالنتيجة لهذا التسلسل في الاستدلال هي شرطية وجود معلم لاكتساب العلم.

لكنه يشترط في المعلم الناقل للعلم: أنْ يتحقق به، فيقول: (فإذا تقرر هذا؛ فلا يؤخذ إلا ممن تحقق به، وهذا أيضاً واضحٌ في نفسه،

(١) الموافقات ١/ ١٣٩ بتصرف.
(٢) يقصد إمكان ذلك عقلًا.
(٣) أخرجه البخاري ١/ ٣١ كتاب العلم، باب كيف يقبض العلم ح١٠٠.

وهو أيضـًا متفق عليه بين العقلاء؛ إذ من شروطهم في العالم بأي علم اتفق؛ أنْ يكون عارفـًا بأصوله وما ينبني عليه ذلك العلم، قادراً علىٰ التعبير عن مقصوده فيه، عارفـًا بما يلزم عنه، قائمـًا علىٰ دفع الشبه الواردة عليه فيه. فإذا نظرنا إلىٰ ما اشترطوه، وعرضنا أئمة السلف الصالح في العلوم الشرعية؛ وجدناهم قد اتصفوا بها علىٰ الكمال، غير أنه لا يشترط السلامة عن الخطأ البتة).

إذن.. المعلم المتحقق بالعلم المتمكن منه في نظر الشاطبي هو من كان:

١. متحصلاً علىٰ أصول هذا العلم وقواعده.

٢. قادراً علىٰ الإفهام والتعبير عن مرادات علمه.

٣. عارفـًا بما يلزم عن مسائله وفروعه.

٤. حارسـًا علىٰ نقائه وسلامته من الدخائل، مدافعـًا عنه.

فهذه عناصر التمكن والتحقق، التي بها يستحق هذا المعلم أنْ يُتلقىٰ عنه، وكأنه يتحدث عن كفايات المعلم المتحقق بالعلم. ولكن كيف نعرف اكتمالها ونقصها في المعلم؟ وكيف نميز المعلم المتحقق بالعلم عن غيره ممن لم يتحقق به؟ ما المؤشرات؟ ما المظاهر الدالة علىٰ تحقق المعلم بالعلم؟

يجيبك الشاطبي عن هذه التساؤلات، فيقول:

(وللعالم المتحقق بالعلم أماراتٌ وعلامات، وهي ثلاث:

إحداها: العمل بما علم؛ حتىٰ يكون قوله مطابقـًا لفعله، فإن كان مخالفـًا له؛ فليس بأهل لأنْ يؤخذ عنه، ولا أنْ **يقتدىٰ** به في علم. والثانية: أنْ يكون ممن ربَّاه الشيوخ في ذلك العلم؛ لأخذه عنهم، وملازمته لهم؛ فهو الجدير بأن يتصف بما اتصفوا به من ذلك، وهكذا كان شأن السلف الصالح. والثالثة: الاقتداء بمن أخذ عنه، والتأدب بأدبه).

بهذه العلامات تستطيع أنْ توجِّه مركبتك نحو العالم المعلم، إنه باختصار: عامل، سبقت له تربية علىٰ يد شيوخه، وهو إلىٰ اليوم تظهر عليه آثار تربيتهم له. وبغير تربيته علىٰ يد الشيوخ فإن سبيل التعليم قاصرة، لفقدها عنصراً رئيسيـًا فيها؛ وهو عنصر المشافهة، والتي تحدث عنها الشاطبي وعن خطورة أثرها في التعلم، فوصفها بأنَّ فيها (خاصية جعلها الله تعالىٰ بين المعلم والمتعلم، يشهدها كل من زاول العلم والعلماء؛ فكم من مسألة يقرؤها المتعلم في كتاب، ويحفظها ويرددها علىٰ قلبه فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهمها بغتة، وحصل له العلم بها بالحضرة، وهذا الفهم يحصل إما بأمر عادي من قرائن أحوال، وإيضاح موضع إشكال لم يخطر للمتعلم ببال، وقد يحصل بأمر غير معتاد، ولكن بأمر يهبه

الله للمتعلم عند مثوله بين يدي المعلم، ظاهر الفقر، بادي الحاجة إلىٰ ما يلقىٰ إليه. ويُفتَح للمتعلم بين أيدي شيوخه ما لا يفتح له دونهم، ويبقىٰ ذلك النور لهم بمقدار ما بقوا في متابعة معلمهم، وتأدبهم معه، واقتدائهم به).

ابن خلدون يشترط سند التعليم

في حديثه عن صناعة العلم؛ تطرق ابن خلدون - **رحمه الله تعالىٰ** - إلىٰ الحذق فيه، وأنه لا يتم إلا بحصول الملَكات، فقال: (الحذق في العلم والتفنُّن فيه، والاستيلاء عليه إنما هو بحصول ملكة في الإحاطة بمبادئه وقواعده، والوقوف علىٰ مسائله، واستنباط فروعه من أصوله. وما لم تحصل هذه الملكة لم يكن الحذق في ذلك الفنِّ المتناول حاصلاً)[1].

ثم فرَّق - رحمه الله - بين الملكة من جانب وبين الفهم والوعي من جانب آخر، فقال: (وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي، لأنا نجد فهمَ المسألة الواحدة من الفنِّ الواحد ووعيَها مشتركًا بين من شدا في ذلك الفن وبين من هو مبتدئ فيه، وبين العامي الذي لم يعرف عِلمًا وبين العالم النحرير. والملكة إنما هي للعالم أو الشادي في الفنون، دون من سواهما، فدلَّ علىٰ أنَّ هذه الملكة غير

---

(١) المقدمة ٢/ ١٦٦.

الفهم والوعي)[1]. ولذلك يستطيع فهم المسألة من قرأها في كتاب، أو استفادها بأي وسيط غير مباشر كالقنوات الفضائية، أو كقنوات اليوتيوب، أو كمجاميع التعليم في شبكات التواصل الاجتماعي.

أما اكتساب الملَكة فلا يكفي فيه أنْ يقرأ أو يطلع أو يستمع، بل هو يحتاج إلىٰ التعليم المباشر، يقول ابن خلدون رحمه الله تعالىٰ: (والملَكات كلها جسمانية، سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره كالحساب، والجسمانيَّات كلها محسوسة فتفتقر إلىٰ التعليم. ولهذا كان السند في التعليم - في كل علمٍ أو صناعةٍ - إلىٰ مشاهير المعلمين فيها معتبراً عند كل أهل أفق وجيل)[2].

وفي فصلٍ سابق قال: (اعلم أنَّ الصناعة هي ملكة في أمر عملي فكري، وبكونه عملياً هو جسماني محسوس. **والأحوال الجسمانية المحسوسة** نقلها بالمباشرة أوعبُ لها وأكمل، لأنَّ المباشرة في الأحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمالِ ذلك الفعل وتَكرُّرِه مرة بعد أخرىٰ حتىٰ ترسخ صورته. وعلىٰ نسبة الأصل تكون الملكة. ونقل المعاينة أوعبُ وأتم من نقل الخبر والعلم، فالملكة الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكة الحاصلة عن الخبر، وعلىٰ قدر جودة التعليم وملكة المعلِّم يكون

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٦٦.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٦٦.

حذق المتعلِّم في الصناعة وحصول ملكته)[1].

ثم أبدىٰ ملحوظاته علىٰ الحالة العلمية في العالم الإسلامي، وتأثرها باتصال السند وانقطاعه، مقرراً أثرهما علىٰ حذق العلم وملكاته، فيقول: (وإذا تقرر ذلك فاعلم أنَّ سندَ تعليمِ العلم لهذا العهد قد كاد أنْ ينقطع عن أهل المغرب، باختلال عمرانه، وتناقص الدُّول فيه، وما يحدث عن ذلك من نقص الصنائع وفقدانها كما مرَّ. وذلك أنَّ القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب والأندلس، واستبحر عمرانهما، وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواقٌ نافقة وبحورٌ زاخرة، ورسخ فيهما التعليمُ لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة، فلما خربتا انقطع التعليم من المغرب إلا قليلاً...، وبقيت فاسٌ وسائر أقطار المغرب خِلواً من حُسن التعليم، مِن لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان، ولم يتصل سند التعليم فيهم؛ فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم.

وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه، بل أسواقه نافقة وبحوره زاخرة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه، وإنْ كانت الأمصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت، مثل بغداد والبصرة والكوفة؛ إلا أنَّ الله تعالىٰ قد أدال منها بأمصار أعظم من تلك، وانتقل العلم منها إلىٰ عراق العجم بخراسان وما وراء النهر

(١) المصدر السابق ٢/ ٩٠.

من المشرق، ثم إلىٰ القاهرة وما إليها من المغرب، فلم تزل موفورة، وعمرانها متصلاً، وسند التعليم بها قائماً. فأهل المشرق علىٰ الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلم، بل وفي سائر الصنائع)[1].

وقد أورد شواهد في ثنايا ملحوظاته علىٰ تأثير السند في الحذق والعلم فيقول: (وبعد انقراض الدولة بمرَّاكش ارتحل إلىٰ المشرق من إفريقية: القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد أواسط المئة السابعة، فأدرك تلميذ الإمام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم، وحذق في العقليات والنقليات، ورجع إلىٰ تونس بعلمٍ كثير، وتعليم حسن. وجاء علىٰ أثره من المشرق: أبو عبد الله بن شعيب الدكَّالي، كان ارتحل إليه من المغرب، فأخذ عن مشيخة مصر، ورجع إلىٰ تونس واستقرَّ بها، وكان تعليمه مفيداً، فأخذ عنهما أهل تونس، واتصل سند تعليمهما في تلاميذهما، جيلاً بعد جيل،....)[2].

هكذا يكون تأثير المباشرة والاتصال واللقاء في تجويد التعليم وحذقه وإكساب المهارات المهمة والملكات الفائقة، وبدون ذلك يضعف التعليم، ولا يصل إلىٰ كماله وجماله، ولا يبلغ أهله مبلغ الإبداع فيه، ولا يكونون بغيره معتبرين عند أهله.

---

(١) المصدر السابق ٢/ ١٦٧.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٦٧

السند هو الحل

وإنَّ التربية الإسلامية صناعة وعلم.

وأيُّ صناعة! وأيُّ علم!

ذلك أنها لمن أجلِّ الأعمال وأفضلها، فهي وظيفة الأنبياء والمرسلين، ومهمة الدعاة والمصلحين، الذين أفنوا أعمارهم وأوقاتهم في تزكية النفوس وإصلاحها، وفي تعبيد الناس لله رب العالمين، فوجبت العناية بتعليم هذه الصناعة: التربية الإسلامية.

غير أنَّ هذا الفنَّ بحاجة إلىٰ السند للحصول علىٰ أعلىٰ الملكات فيه وأميز المهارات المتعلقة به، ليصبح المربون حاذقين لوظيفتهم، ماهرين في أدائهم، متحققين بعلمهم، وذلك لا يكون بغير اللقاء والمشافهة والمباشرة والاتصال والتربية علىٰ يد الشيوخ.

إنَّ حرصنا علىٰ تربية الناشئة واطلاعنا علىٰ ما كتبه العلماء والخبراء ليسا كافيين في ضمان جودة تعليمنا وتربيتنا، وإنما لا بد من التلقي المباشر لأنه الوحيد الذي يتضمن إكساب الملكات والمهارات، وما لم يتم ذلك فسوف تبقىٰ التربية في قصور ومعاناة. وهذا واحد من الأسباب التي بها يضعف العمل التربوي.

وعليه فإنه لا مناص من الالتقاء والتلقي المباشر الذي يقتضي طولاً نسبياً في المدة الزمنية، تكون كافية لاكتساب الملكة.

السند هو الحل الإستراتيجي لبعض المشكلات في ميادين التربية.

وإنَّ علينا أنْ ندرك أبعاد اتصال الأسانيد وانقطاعها، وتأثير ذلك علىٰ الجودة والحذق، كما بيَّن ذلك ابن خلدون رحمه الله تعالىٰ.

المحاضن النائية

جمٌّ غفير من المربين والمعلمين الذين بنوا محاضن تربوية، وجلسوا إلىٰ الناشئة؛ قد فازوا بسند التربية والتعليم، وتربوا علىٰ يد الشيوخ، ولديهم من الملكات والمهارات ما يؤهلهم للحذق والتحقق في التربية والتعليم، علىٰ تفاوت في درجات الحذق والتحقق والتمكن ما بين حدٍ أعلىٰ وحدٍ أدنىٰ.

وهناك فئة منهم لم تنتظم أسماؤهم في سلسلة الإسناد التربوية، لظروف مختلفة، وقد أقاموا بناء المحاضن في ديارهم، وشيدوا برامج التربية في محاضنهم، ولأننا نولي الحذق التربوي أهمية؛ فإننا نرغب أنْ ينتظموا في سلسلة الإسناد.

وهذه المسؤولية تقع علىٰ عاتق عنصرين:

الأول: هم هؤلاء الأساتذة المربون الذين فاتهم السند. عليهم واجب الاتصال بمن سبقهم من المربين، وعليهم واجب الشراكة مع الإدارات التربوية المتفوقة، لاستلهام تجربتهم والاستفادة

من مناهجهم ونمذجة إدارتهم؛ وليس الاستنساخ. ومع انخفاض مستوىٰ الصعوبة في السفر والترحال إلىٰ درجة أصبحا سهلة في بعض الظروف؛ فإنَّ هذه المسؤولية تزداد، ويقلُّ معها الإعذار، وهي مبدأ من مبادئ التعلم، كما لا يخفىٰ علىٰ القارئ الكريم، سطره فقهاء التربية الإسلامية تحت عنوان: الرحلة في طلب العلم.

الثاني: هي الإدارات التربوية المتفوقة ومن فيها من المربين الكبار. عليهم واجب الأخ الكبير؛ من مدِّ جسور التعاون، وأيدي التواصل، وتسخير جزء من إستراتيجياتهم في هذا الاتجاه، وتفقُّد المحاضن التربوية النائية، وتقديم الدعم التربوي اللازم، وتطوير الأداء التربوي للعاملين. ونحن في عصر الاتصال السريع والسهل؛ فلا التباعد يسوغ، ولا الانغلاق يبرر.

وقد أضاف شيخ الشام أبو مسهر الغساني – رحمه الله تعالىٰ – علىٰ معنىٰ التلمذة معنىٰ آخر، وهو مجالسة أهل العلم، فيقول: (إلا جليس العالم فإن ذلك طلبه)[1]، قال الخطيب البغدادي تعقيبًا علىٰ ذلك: (أراد أبو مسهر بهذا القول أن من عُرفت مجالستُه للعلماء، وأخذُه عنهم؛ أغنىٰ ظهورُ ذلك من أمره أن يُسأل عن حاله).

---

(١) الكفاية في علم الرواية، ص٨٧.

وإضافة إلىٰ الواجب الملقىٰ علىٰ العنصرين السابقين – والمتمثل في مبادرات حقيقية وبناءة وصامتة؛ تتقدم بتنمية الإسناد وترعىٰ مسؤوليته – فإني أقترح أيضـًا ما يأتي:

١. إقامة المؤتمرات والملتقيات التربوية التي من شأنها أنْ تُطرح فيها أوراق العمل، وأنْ تنفَّذ علىٰ هامشها عدد من حلقات النقاش المثرية. فهذه المؤتمرات والملتقيات – إضافة إلىٰ الإثراء العلمي المتخصص – تصل بين المربين، وتسهم في صناعة الإسناد، وتهيئ الجِواء لإبرام اتفاقيات وشراكات نافعة.

٢. عقد برامج التدريب والتأهيل التربويَّيْن عبر شبكة الإنترنت، والتي يمكن من خلالها تنفيذ مشاريع واقعية تنمي الإسناد. وهذا المقترح سيفيد كثيراً من المربين النائيين.

٣. إقامة المسابقات الكبيرة، المعنية بتنمية المربين والمعلمين، والتي تتضمن إجراءاتها التقاءً وتعليمـًا جيدَيْن، ورصد الجوائز القيمة لها، واختيار الموضوعات المناسبة لها.

* * *

الباب الأول

(إياك أنْ تشتغلَ بما يُصلِحُ غيرَك قبلَ إصلاحِ نفسك، واشتغلْ بإصلاح باطنك وتطهيره من الصفات الذميمة، كالحرص والحسد والرياء والعجب؛ قبل إصلاح ظاهرك. فإنْ لم تتفرغ من ذلك فلا تشتغلْ بفروض الكفايات، فإنَّ في الخلق كثيراً يقومون بذلك، فإنَّ مُهلِكَ نفسِهِ في طلب صلاحِ غيرِهِ سفيهٌ، ومثَله مثَلُ مَنْ دخلتْ العقاربُ تحت ثيابِه وهو يذبُّ الذبابَ عن غيرِهِ)[1].

إنها وصية الإمام القدوة أبي الفرج، ابن أبي عمر، شمس الدين ابن قدامة المقدسي (ت: ٦٨٢هـ).

وهي وصية من عالم معلم مربٍ، بذل عمره في طلب العلم وتعليم الناس والتصنيف، وهو ممن تلقىٰ العلم علىٰ علماء مربين، في زمنٍ قد بدأت الأمة حينها بالنهوض من كبوتها، بعد أن أصابها الوهن، وقد دخل الصليبيون إلىٰ بلاد المسلمين واحتلوا جزءاً منها.. ومن أولئك العلماء الذين تلقىٰ العلم عنهم: والده أبو عمر وعمه الموفق ابن قدامة صاحب المغني، وهو الذي صنف الشافي: الشرح الكبير علىٰ المقنع، وأخذ عنه أساطين أهل العلم من بعده، قال عنه

(١) مختصر منهاج القاصدين ١/ ١٠.

الذهبي: (هو ممن اجتمعت الألسن علىٰ مدحه والثناء عليه بالعلم والعمل والأخلاق الشريفة)[1].

وهي وصية خبيرٍ في تزكية النفوس وتهذيبها من الأدواء، تمثل خلاصة ما فهمه وفحصه في تربية الناس وتزكيتهم، وزبدة ما اطلع عليه من النصوص والأقوال.

إصلاح الذات وتهذيب الروح وتزكية النفس أول جهد تربوي تقدمه للناس! وقبل أنْ تلتفت إلىٰ إصلاح الآخرين عليك بإصلاح ذاتك التي بين جنبيك؛ هذا ما يراه أبو الفرج ابن قدامة. إنه البوابة الرئيسية والوحيدة التي منها تنطلقُ في فضاء العمل التربوي، وإنَّ البدءَ بإصلاح الناس قبل النفس: سفهٌ. كما يعبِّر رحمه الله تعالىٰ عنه.

لقد أقسم المولى الكريم على أنَّ الذين يهتمون بأنفسهم ويولونها عنايتهم من الإصلاح والتزكية والتهذيب والتطهير والارتقاء بها في معارج الطاعات ومدارج العبادات... أنهم هم المفلحون، وأنَّ المفرِّطين في حق أنفسهم، وأهملوا تزكيتها بالقربات، ولم يربوها بالطاعات... أنهم خائبون، قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا

(١) معجم الشيوخ ص٢٩٩.

﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس:١-١٠].

لمنْ نترك تربية الجيل؟

هذا السؤال الشبهة الذي يرِد علىٰ المربين بعد قراءة نص أبي الفرج ابن قدامة رحمه الله. إذا اشتغلنا بإصلاح ذواتنا عن تربية الآخرين فمن يقوم بالأعمال التربوية؟ وإذا كان كل مربٍ يرىٰ نفسه مقصراً في طاعة الله ساحة التربية ستخلو من المربين! فما العمل إذن؟ هل نربي أنفسنا فننكفئ علىٰ ذواتنا أم نربي الجيل ونقصِّر في تربية ذواتنا؟

في حقيقة الأمر ليست المسألة خياراً بين نقيضين، إما تربية الذات وإما تربية الآخرين، وإنما هي سلم تبدأ فيه بتربية الذات ثم تثني فيه بتربية الآخرين مستصحباً لتربية الذات معك. فتربية الذات هي أول الأمرين، لكنها لا تنتهي، فقد قال الله تعالى: ﴿ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴾ [الحِجر:٩٩]. ثم تبدأ بتربية الآخرين دون توقف عن تربية الذات، بل ربما تتوقف عن تربية الآخرين وتبقى تربية الذات.

والأمر الآخر في إجابة هذا السؤال: أنَّ إصلاح الذات وتربيتها علىٰ طاعة الله وهداه سيكفيانك مؤونة الاهتمام بمسألة القدوة مع طلابك، إذ يرىٰ الطلاب في معلمهم اهتمامه بنفسه وإصلاحه لذاته وقلبه، وسيكون هذا بحد ذاته مؤثراً للغاية.. التأثير الذي ينبغي أنْ يعيَه المربون، إذ إنَّ الاقتداء بالمربي في سلوكه وعباداته واهتماماته يمثل تأثيراً حقيقيـًا في شخصية المقتدي (الطالب) يفوق بأضعاف تأثره بالمواعظ والدروس والتلقين.

وهذا أبو الفرج ابن قدامة رحمه الله الذي يرىٰ إصلاح النفس قبل إصلاح الآخرين علىٰ هذا النحو، وكان بسلوكه وعباداته واهتماماته في بؤرة التأثير التربوي، إذ كان محل قدوة لطلبة العلم، وساهم بإصلاحه لنفسه في تربية جديدة جادة لطلاب العلم آنذاك. (قال الذهبي: وروىٰ عنه أيضـًا الشيخ زين الدين أحمد بن عبد الدائم، وهو أكبر منه وأسند. وذكره في تاريخه الكبير. وأطال ترجمته. وذكر فضائله وعبادته وأوراده، وكرمه ونفعه العام، وأنه حج ثلاث مرات. فكان آخرها: قد رأىٰ النبي صلىٰ الله عليه وسلم في المنام يطلبه، فحج ذلك العام. وحضر الفتوحات، وأنه كان رقيق القلب، سريع الدمعة، كريم النفس، كثير الذكر لله، والقيام بالليل، محافظـًا علىٰ صلاة الضحىٰ. ويصلي بين العشاءين ما تيسر، ويؤْثر بما يؤتيه من صلة الملوك وغيرهم. وكان متواضعـًا عند العامة، مترفعـًا عند الملوك. وكان مجلسه عامراً بالفقهاء

والمحدثين وأهل الدين. وأوقع الله محبته في قلوب الخلق. ولم يكن في زمانه من يصلي أحسن منه، ولا أتم خشوعـًا. وكان كثير الدعاء والابتهال، لا سيما في الأماكن المرجو فيها الإجابة، وبعد قراءة آيات الحرس بالجامع بعد العشاء، كثير الاهتمام بأمور الناس، لا يكاد يعلم بمريض إلا افتقده، ولا مات أحد من أهل الجبل إلا شيعه)[1].

(وقال اليونيني في تاريخه: شيخ الإسلام، علما وزهدا وورعا، وديانة وأمانة، كبير القدر، جم الفضائل. انتهت إليه الرياسة في الفقه علىٰ مذهب الإمام أحمد، وشرح كتاب « المقنع « لعمه الشيخ موفق الدين، وإن كان معظم الشج مأخوذ من كلام عمه. وكـان له اليد الطولىٰ في معرفة الحديث، والأصول والنحو وغير ذلك من العلوم الشرعية، مع العبادة الكثيرة، والتواضع واللطف بكرم الأخلاق، ولين الجانب، والإحسان إلىٰ القريب والبعيد، والاحتمال. وولي قضاء القضاة مكرها. وباشر ذلك مدة. ثم عزل نفسه، وامتنع من الحكم، وبقي متوفرا علىٰ العبادة والتدريس، وإشغال الطلبة والتصنيف. وكان أوحد زمانه في تعدد الفضائل، والتفرد بالمحامد، ولم يكن له نظير في خلقه ورياضته. وما هو عليه، وانتفع به خلق كثير. وكان علىٰ قدم السلف الصالح في معظم أحواله)[2].

---

(١) الذيل علىٰ طبقات الحنابلة ٤/ ٣٠٥.

(٢) الذيل علىٰ طبقات الحنابلة ٤/ ٣٠٧.

أسألك أخي القارئ: هل كان انشغال أبي الفرج ابن قدامة رحمه الله بذاته عائقـًا له عن التأثير علىٰ الآخرين؟

الجواب: لا. إذ لا يزال الناس إلىٰ اليوم يقتاتون عليه في الفقه والآداب والرقاق، فتأمل بركة إصلاح النفس وتأثيرها علىٰ إصلاح الغير.

ولولا خشية الإطالة لذكرت شاهداً آخر، هو الإمام النووي رحمه الله، والشواهد غيره كثيرة، في تسليط ضوئها علىٰ ذاتها، وقوة تأثيرها علىٰ غيرها. والله المستعان.

القدوة وعمق التأثير

إذا كنا نطالب بتغليب جانب القدوة علىٰ جانب التوجيه المجرد في العمل التربوي فإنَّ شواهد تراجم الأئمة وأهل العلم والمصلحين والمجددين المعروفين تأتي في هذا الاتجاه، إذ كان شغلهم بأنفسهم بغرض إصلاحها وتهذيبها وتنميتها والارتقاء بها يعتبر لديهم الباب الأول من أبواب التربية، ورأس الهرم في عمليات التغيير وإصلاح المجتمع.

نعم. ربما الأشخاص الذين ينشغلون بذواتهم إصلاحـًا وتهذيبـًا يكونون أقل احتكاكـًا بالآخرين ومباشرة لهم، وبذلك تقلُّ دائرة التأثير الأفقية في ظرفهم الزماني، لكن المؤكد واليقين أنَّ تأثيرهم

الرأسي فيمن حولهم يزداد قوة وصلابة، ثم يضع الله لهم بركة في التأثير، تمتد دون مبالاة بحاجز المكان والزمان.

وابن الجوزي له كلام في غاية الأهمية في هذا السياق، إذ يقول: (لقيت مشايخ، أحوالهم مختلفة يتفاوتون في مقاديرهم في العلم، وكان أنفعَهم لي في صحبةٍ: العاملُ منهم بعلمه، وإن كان غيره أعلم منه. ولقيت عبد الوهاب الأنماطي فكان علىٰ قانون السلف لم يسمع في مجلسه غيبة، ولا كان يطلب أجراً علىٰ سماع الحديث، وكنت إذا قرأتُ عليه أحاديث الرقائق بكىٰ واتصل بكاؤه، فكان - وأنا صغير السن حينئذ - يعمل بكاؤه في قلبي، ويبني قواعد، وكان علىٰ سمت المشايخ الذين سمعنا أوصافهم في النقل.

ولقيت الشيخ أبا منصور الجواليقي، فكان كثير الصمت، شديد التحري فيما يقول، متقنًا محققًا، وربما سئل الظاهرة التي يبادر بجوابها بعض غلمانه فيتوقف فيها حتىٰ يتيقن، وكان كثير الصوم والصمت، فانتفعت برؤية هذين الرجلين أكثر من انتفاعي بغيرهما.

ففهمت من هذه الحالة أن الدليل بالفعل أرشد من الدليل بالقول.

ورأيت مشايخ كانت لهم خلواتٌ في انبساطٍ ومزاح، فراحوا عن القلوب، وبدَّد تفريطُهم ما جمعوا من العلم، فقلَّ الانتفاع بهم في حياتهم، ونُسوا بعد مماتهم، فلا يكاد أحدٌ أن يلتفت إلىٰ مصنفاتهم.

فالله الله في العلم بالعمل فإنه الأصل الأكبر. والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في عِلمٍ لم يعملْ به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة فقدِم مُفلساً؛ مع قوة الحجة عليه). الله المستعان! اللهم ألهمنا رشدنا!.

إنَّ مفهوم القدوة في جوهره يعني العودة إلى الذات وإصلاحها وتكميلها بالعمل الصالح وتزكية النفس من الخوارم وتطهير القلب من الشوائب، وإنَّ قانون القدوة في حقيقته هو: أصلح نفسك ويسصلُح من حولك، هكذا قرره القرآن الكريم حين تناول ابتلاء إبراهيم بالوحي، قال الله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة:١٢٤]. لقد كان ابتلاء الله تعالى لإبراهيم عليه السلام أن أوحى إليه بالشرائع والأعمال، فما أتمها إبراهيم على أحسن وجهٍ – كما قال الله تعالىٰ في وصفه: ﴿ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴾ [النجم:٣٧] – جعله الله تعالى إماماً للناس وقدوة يقتدي به الناس إلى قيام الساعة.

بين القدوة وإصلاح النفس

يحرص بعض المربين في أنْ يظهر أمام طلابه بالسمت الحسن والأعمال الصالحة كي يقتدوا به، ويفعلون ذلك بحسن نية وطهارة

مقصد، وبظنٍ منهم أنَّ ذلك مطلوب في التربية الإسلامية، بينما في حقيقة الأمر أنَّ المطلوب هو إصلاح النفس حقيقةً وحملها علىٰ جادة الصواب، وأطرها علىٰ الحق أطراً؛ ابتغاء الأجر والثواب من الله وحده، وأنْ يكون العامل متلمساً للإخلاص والتجرد، واللذين يعبر عنهما بإخفاء الأعمال الصالحة قدر الإمكان.

إن القدوة لا تُصنع ولا تتكلف ولا يُسعى إليها، إنما هي نتيجة طبيعية للمجهود الذي يقوم به المربي المقتدى به في سبيل إصلاح نفسه وسيره إلى الله تعالى، فهو محبٌ للصلوات مواظب على فعلها كما أمر الله تعالى، محافظ على سننها الرواتب ووترها، مستزيد من النوافل، كثير الذكر لله تعالى، مستزيد من التسبيح والتهليل والتكبير والتحميد، يبتغي بذلك القربى من الله تعالى، لا يتخلف عن حزبه من كتاب الله تعالى، دائم الإحسان عفيف الأخلاق، كافٌ نفسه عن المحارم، متورع في معاملاته، إلى غير ذلك من أبواب الخير التي ترتفع بها درجاته عند الله. أما العناء والجهد فهما في ذلك المجهود، والذي يبذله المربي تقرباً إلى الله تعالى مستشعراً قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

إنَّ المطلوب الحقيقي من المربي هو أنْ يكون صالحـًا وليس المطلوب منه أنْ يكون قدوة، فإذا أصلح المربي نفسه فلا محالة أنَّ الآخرين سيقتدون به، شاء أم أبىٰ. بل كلما ازداد المربي صلاحـًا مقت نفسه ولم يرها أهلاً لأنْ يُقتدىٰ بها، أما الآخرون فإنَّ أعينهم لا تمل من النظر إلىٰ سمته ودلِّه.

إنها دعوة إلىٰ الاهتمام بالباب الأول من أبواب العمل التربوي، ألا وهو إصلاح النفس وتزكيتها. فاللهم! آت نفوسنا تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها. آمين.

* * *

تربية العقل الناقد

قال عبيد الله بن عياض بن عمرو القاري: (جاء عبد الله بن شداد، فدخل علىٰ عائشة، ونحن عندها جلوس، مرجعَه من العراق لياليَ قال عليٌّ، فقالت له: يا عبد الله بن شداد، هل أنت صادقيَّ عما أسألك عنه؟ تحدثني عن هؤلاء القوم الذين قتلهم عليٌّ؟

قال: وما لي لا أصدُقك؟ قالت: فحدثني عن قصتهم.

قال: فإنَّ عليـًا لما كاتب معاوية، وحكَّم الحكمين، خرج عليه ثمانيةُ آلافٍ من قراء الناس، فنزلوا بأرض يقال لها: حروراء، من جانب الكوفة، وإنهم عتبوا عليه، فقالوا: انسلختَ من قميصٍ ألبسكه الله تعالىٰ، واسمٍ سماك الله تعالىٰ به، ثم انطلقت فحكَّمت في دين الله، فلا حكم إلا لله تعالىٰ.

فلما أنْ بلغ عليـًا ما عتبوا عليه، وفارقوه عليه، فأمر مؤذنـًا فأذن: أن لا يدخل علىٰ أمير المؤمنين إلا رجل قد حمل القرآن. فلما أن امتلأت الدار من قراء الناس، دعا بمصحف إمام عظيم، فوضعه بين يديه، فجعل يصكُّه بيده ويقول: أيها المصحف، حدِّث الناس.

فناداه الناس فقالوا: يا أمير المؤمنين! ما تسأل عنه!؟ إنما هو مداد في ورق، ونحن نتكلم بما رُوِينا منه، فماذا تريد؟

قال: أصحابكم هؤلاء الذين خرجوا، بيني وبينهم كتاب الله عز وجل، يقول الله تعالىٰ في كتابه في امرأة ورجل: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء:٣٥]، فأُمَّة محمد ﷺ أعظم دمًا وحرمة من امرأة ورجل. ونقموا عليَّ أنْ كاتبتُ معاوية: كتبَ عليٌّ بن أبي طالب، وقد جاءنا سهيل بن عمرو، ونحن مع رسول الله ﷺ بالحديبية، حين صالح قومه قريشًا، فكتب رسول الله ﷺ: «بسم الله الرحمن الرحيم». **فقال سهيل**: لا تكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم». **فقال**: «كيف نكتب؟». فقال: اكتب باسمك اللهم. فقال رسول الله ﷺ: «فاكتب: محمد رسول الله». فقال: لو أعلم أنك رسول الله لم أخالفك. فكتب: (هذا ما صالح محمد بن عبد الله قريشًا». يقول الله تعالىٰ في كتابه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب:٢١].

فبعث إليهم عليٌّ عبدَ الله بن عباس، فخرجت معه، حتىٰ إذا توسطنا عسكرهم، قام ابن الكوَّاء يخطب الناس، فقال: يا حملة القرآن! إن هذا عبد الله بن عباس، فمن لم يكن يعرفه فأنا أُعَرِّفُه من كتاب الله ما يَعْرِفُه به، هذا ممن نزل فيه وفي قومه: ﴿قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف:٥٨] فرُدُّوه إلىٰ صاحبه، ولا تُواضِعوه كتاب الله.

فقام خطباؤهم فقالوا: والله لنواضِعنَّه كتاب الله، فإن جاء بحق نعرفه لنتبعنه، وإن جاء بباطل لنُبكِّتنه بباطله.

فواضعوا عبد الله الكتاب ثلاثة أيام، فرجع منهم أربعة آلاف كلهم تائب، فيهم ابن الكواء، حتىٰ أدخلهم علىٰ عليٍّ الكوفة.

فبعث علي إلىٰ بقيتهم، فقال: قد كان من أمرنا وأمر الناس ما قد رأيتم، فقفوا حيث شئتم، حتىٰ تجتمع أمة محمد ﷺ، بيننا وبينكم أن لا تسفكوا دمًا حرامًا، أو تقطعوا سبيلاً، أو تظلموا ذمة، فإنكم إن فعلتم فقد نبذنا إليكم الحرب علىٰ سواء، إن الله لا يحب الخائنين.

فقالت له عائشة: يا ابن شداد، فقد قتلهم؟

فقال: والله ما بعث إليهم حتىٰ قطعوا السبيل، وسفكوا الدم، واستحلوا أهل الذمة.

فقالت: آلله؟

قال: آلله الذي لا إله إلا هو لقد كان)[1].

العقول الفارغة

(الجماهير غير ميالة كثيراً للتأمل، وغير مؤهلة للمحاكمة العقلية، ولكنها مؤهلة جداً للعمل والانخراط)[2]. هكذا هم عموم الناس؛ إنْ

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢/ ٨٤ ح٦٥٦.
(٢) سيكولوجية الجماهير، ص٤٥.

لم يكن لهم نصيب من التربية النقدية التي أسهم المنهج الإسلامي في تنميتها وتهذيبها.

الذين خرجوا علىٰ الخليفة علي بن أبي طالب ﷺ بسبب مسألة التحكيم كثيرون، بل إنَّ الرواية هذه إنما تحصي عدد (القراء) وهم حفاظ القرآن والمكثرون من العبادة والتقشف من الخوارج، والذين كانوا في مقدمة الخوارج، والذين نعتهم النبي ﷺ في الحديث بقوله: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[1]. وفي الرواية الأخرىٰ قال ﷺ: «يأتي في آخر الزمان قوم حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، فأينما لقيتموهم فاقتلوهم، فإنَّ قتلهم أجرٌ لمن قتلهم يوم القيامة»[2]. قال ابن حجر رحمه الله: (كان يقال لهم القراء لشدة اجتهادهم في التلاوة والعبادة، إلا أنهم كانوا يتأولون القرآن علىٰ غير المراد منه، ويستبدُّون برأيهم، ويتنطعون في الزهد والخشوع وغير ذلك)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٢/ ٥٣٠ كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام ح٣٦١٠.

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ٣٥٢ كتاب فضائل القرآن، باب إثم من راءىٰ بقراءة القرآن، أو تأكَّل به، أو فجر به ح٥٠٥٧.

(٣) فتح الباري ١٢/ ٢٩٦.

وحتىٰ نكون منصفين.. فإن القراء الخوارج لم تكن مشكلتهم في ذات التعبد، ولا في تسليمهم للنص القرآني واجتهادهم في حفظه، بل كانوا فيهما في غاية الاهتمام. إنَّ مشكلتهم الرئيسية تكمن في انعدام آلة الفقه، وفي الطرائق الخاطئة في فهم النصوص، والإخفاق في تأويل النصوص وتنزيلها في الواقع، لذلك كان الصحابي الجليل ابن عمر رضي الله عنهما (يراهم شرار خلق الله: انطلقوا إلىٰ آيات الكفار فجعلوها في المؤمنين)[1] تسلسل منطقي، لكنه في الاتجاه الخاطئ.

بل لو تأملت صريح الحديث لعلمت ذلك، حيث نص علىٰ أنهم (سفهاء الأحلام) أي العقول. قال ابن تيمية رحمه الله: (وكانت البدع الأولىٰ مثل «بدعة الخوارج» إنما هي من سوء فهمهم للقرآن: لم يقصدوا معارضته، لكن فهموا منه ما لم يدل عليه، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب؛ إذا كان المؤمن هو البر التقي. قالوا: فمن لم يكن براً تقيـًا؛ فهو كافر، وهو مخلد في النار. ثم قالوا: وعثمان وعلي ومن والاهما ليسوا بمؤمنين، لأنهم حكموا بغير ما أنزل الله)[2].

---

(١) المصدر السابق ١٢/ ٢٩٨.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ١٣/ ٣٠.

إذا تبين لك ذلك، ثم علمت من إخبار النبي ﷺ بأنهم يأتون في آخر الزمان أدركت أنَّ هذا المسلك شأن يتكرر مع تعاقب الأزمان، وأدركت خطورة الميدان الذي تكبو فيه هذه الجياد، وهو العقل والآلة التي تعمل فيه، وهي آلة التفكير الناقد.

هذه الحالة الرديئة لم تطل أصحابَ النبي ﷺ، ولم تطل أصحابَ أصحابه الذين تلقوا العلم والإيمان علىٰ أيديهم، لأن التربية النبوية ـ ووتربية الصحابة كذلك – اعتنت بجانب الفقه والفهم وآليات التفكير، بخلاف الخوارج، قال ابن حزم رحمه الله: (كانوا أجلافاً أعراباً قرؤوا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء، لا من أصحاب ابن مسعود، ولا أصحاب ابن عمرو، ولا أصحاب علي، ولا أصحاب عائشة، ولا أصحاب أبي موسىٰ، ولا أصحاب معاذ بن جبل، ولا أصحاب أبي الدرداء، ولا أصحاب سلمان، ولا أصحاب زيد وابن عباس وابن عمر، ولهذا تجدهم يكفِّر بعضهم بعضاً عند أقل نازلة تنزل بهم من دقائق الفتيا، وصغارها...)[1].

لقد كان من السهل جداً أنْ تجد صفوف الخوارج آنذاك صدىٰ واسعاً لدعاوىٰ ومقالات ومؤامرات عبد الله بن سبأ اليهودي؛ الذي أظهر إسلامه وحبه الشديد لعلي بن أبي طالب، ليخدع الجماهير بذلك.

---

(١) الفصل في الملل والنحل ٤/ ١٣٢.

إنها الجماهير.. حين تفقد الآلة التي تميز بها الحق من الباطل، والصواب من الخطأ، والحقائق من الآراء والانطباعات، فإنها تُسلم زمامها لمنْ يعبث بأفكارها وسلوكها.

العقل الناقد في مواجهة الإعلام القائد

إننا اليوم أمام طوفان من الأفكار والمعلومات والآراء، تتدفق بلا توقف من الوسائط الإعلامية المختلفة، والتي تقوم بتشكيل عقول الشباب المسلم من الجنسين بلا وعي ولا رحمة ولا موضوعية. إنه غالبًا ما يعزف علىٰ وتر الخيال والأوهام، ويقدم أطروحاته وهو واثق من القدرة التأثيرية علىٰ جماهيره.

(إنَّ الخيال الخاص بالجماهير - كخيال كل الكائنات التي لا تفكر عقلانيًا - مهيأ لأنْ يتعرض للتأثير العميق، فالصور التي تثيرها في نفوسهم شخصية ما، أو حدث أو حادث ما؛ لها حيوية وقوة الأشياء الواقعية ذاتها. ولما كانت الجماهير غير قادرة لا علىٰ التفكير ولا علىٰ المحاكمة العقلية فإنها لا تعرف معنىٰ المستحيل، أو المستبعد الحدوث، ولما كانت الجماهير عاجزة عن التفكير إلا بواسطة صور فإنه لا يمكن جذبها والتأثير عليها إلا عن طريق الصور، ووحدها هذه الأخيرة ترعبها أو تجذبها، وتصبح باعثًا علىٰ العمل والممارسة. ولهذا السبب فإن التمثيلات المسرحية التي تقدم الصور

بصيغتها الأكثر وضوحاً لها دائماً تأثير ضخم علىٰ الجماهير)[1].

وضمن تقرير وسائل التواصل الاجتماعي في العالم العربي الصادر عن قمة رواد التواصل الاجتماعي العرب ٢٠١٥م: (٦٣٪) من العينة يقولون: أحدثت وسائل التواصل الاجتماعي تغييراً كلياً في حياتي!، و(٤٤٪) يقولون: أنا أثق في وسائل التواصل الاجتماعي! إنَّ قيادة العواطف فوق ما نتصور.

كل يوم تزداد قدرة الإعلام علىٰ التأثير في جماهير الناس، إذ لا ينفك عن تطوير أدواته وتقنياته، في منافسة شديدة بين أساطينه ودهاقنته، علىٰ استقطاب أكبر عدد من هذه الجماهير، ثم هو يصبُّ أطروحاته في تلك القوالب المتعطشة المأسورة.

لقد أصبحت حماية الشباب من سطوة الإعلام واجباً تربوياً، لا يمكن تأخيره ولا تأجيله ولا الاستهانة به، للعودة بالعقول الشابة إلىٰ مواقعها الحقيقية، ولفك إسارها، كما فعل القرآن الكريم بالذين خلعوا ثياب الجاهلية، واكتسوا لباس الإسلام، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠] حيث

(١) انظر: سيكولوجية الجماهير، ص٨٦.

حررهم من الضغوط الفكرية حينها، وأطلقهم في فضاء الوحي، تأملاً وتفكراً واتباعـًا وإبداعـًا.

لقد كان واضحـًا منذ فجر الدعوة المحمدية أنَّ العقل مسارٌ من مسارات التربية الإسلامية، وحقلٌ من حقول الغرس الجديد.

في سياق قصة موسىٰ مع فرعون لفت القرآنُ عنايتنا إلىٰ مسألة استخفاف فرعون بعقول الجماهير حتىٰ أطاعوه، وأنهم بطاعتهم له وخضوعهم لسلطة التزييف الإعلامي لم يعودوا صالحين: ﴿ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴾ [الزخرف:٥٤]، قال السعدي رحمه الله: (استخف عقولهم بما أبدىٰ لهم من هذه الشبه، التي لا تسمن ولا تغني من جوع، ولا حقيقة تحتها، وليست دليلاً علىٰ حق ولا علىٰ باطل، ولا تروج إلا علىٰ ضعفاء العقول. فأيُّ دليلٍ يدل علىٰ أن فرعون محق، لكون ملك مصر له، وأنهاره تجري من تحته؟ وأيُّ دليل يدل علىٰ بطلان ما جاء به موسىٰ لقلة أتباعه، وثقل لسانه، وعدم تحلية الله له؟ ولكنه لقي ملأ لا معقول عندهم، فمهما قال؛ اتبعوه، من حق وباطل)[1].

سلفٌ يعتمدون التربية النقدية

بمعنىٰ أوضح؛ فإنَّ مشكلة هؤلاء الخوارج هي أنهم كانت تنقصهم

---

(١) تفسير السعدي ٤/ ١٦١٤.

بعض المفاهيم والاتجاهات والمهارات الواجب توفرها في المُخْرَجِ التربوي في منهج التربية الإسلامية، ومن أهمها: التفكير النقدي الذي يُعنىٰ بفحص الأمور وتدقيقها، وسبر أسبابها ونتائجها، وتمييز رديئها من حسنها، وهو ما كان ينميه نبينا ﷺ في أصحابه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل من بني فزارة إلىٰ النبي ﷺ فقال: إن امرأتي ولدت غلامـًا أسود! فقال النبي ﷺ: «هل لك من إبل؟» قال: نعم. قال: «فما ألوانها؟» قال: حمر. قال: «هل فيها من أورق؟» قال: إن فيها لوُرْقـًا. قال: «فأنىٰ أتاها ذلك؟» قال: عسىٰ أن يكون نزعه عرق. قال: «وهذا عسىٰ أن يكون نزعه عرق»[1].

لقد تولَّد لدىٰ هذا الرجل انطباعٌ سلبيٌّ تجاه زوجته وابنه، بسبب باعثٍ منطقي يوحي بذلك. لكن النبي ﷺ من خلال المحاكمة العقلية اليسيرة، وبإجراء من إجراءات التفكير الناقد استطاع أنْ يبدد هذا الانطباع المتوهم.

وهو أيضـًا ما كان ينميه أصحابه في أصحابهم، وكذا التابعون، قال الشاطبي في معرض حديثه عن الاجتهاد القياسي، والمسمىٰ بـ(بتخريج المناط)، والمبني علىٰ إثبات العلة بالسبر والتقسيم: (وإلىٰ هذا النوع يرجع الاجتهاد المنسوب إلىٰ أصحاب الأئمة المجتهدين؛ كابن

---

(١) أخرجه مسلم ٢/ ١١٣٧ كتاب اللعان ح١٥٠٠.

القاسم وأشهب في مذهب مالك، وأبي يوسف ومحمد بن الحسن في مذهب أبي حنيفة، والمزني والبويطي في مذهب الشافعي. وقد قبل الناس أنظارهم وفتاويهم، وعملوا علىٰ مقتضاها، خالفت مذهب إمامهم أو وافقته، وإنما كان كذلك لأنهم فهموا مقاصد الشرع في وضع الأحكام، ولولا ذلك لم يحل لهم الإقدام علىٰ الاجتهاد والفتوىٰ)[1].

والاجتهاد القياسي يعتبر تطبيقًا فذاً من تطبيقات التفكير النقدي، فالسبر في لغة الأصوليين هو إبطال كل علة عُلل بها الحكم، إلا واحدة[2]. فهو بهذا الحجم من المعالجة العقلية المتضمنة استقراء جميع العلل المحتملة، ثم اختبارها جميعًا، ثم ترشيح واحدة منها فقط وإبطال ما عداها بطريقة موضوعية؛ يعتبر جهداً ضخمًا ومهارة عالية، وهذا يجلي لك الصورة التي كان التابعون وأتباعهم يتربون عليها.

قول قراء الخوارج: (لا حكم إلا لله)؛ حقيقة لا مراء فيها. لكن الرأي والنتيجة التي توصلوا إليها كانت خاطئة، حيث رأوا أنَّ عليًا ترك تحكيم القرآن. والذي قام به علي بن أبي طالب وابن عباس في هذا السياق هو محاكمة ادعاءاتهم عقلاً. وابن عباس بهذه القوة العقلية إنما كان ترجمانًا للقرآن، وإمامًا في فهم تأويله، فكانت تلك القوة العقلية نتيجة للتربية القرآنية.

---

(١) الموافقات ٥/ ١٢٦.

(٢) انظر: روضة الناظر مع شرحه لابن بدران ٢/ ٢٤١.

وفي مأثور القول عن علي بن أبي طالب وهو يحكي واقعـًا مريراً يتكرر عبر الأزمان: (الناس ثلاثة: عالمٌ ربانيٌّ، ومتعلمٌ علىٰ سبيل نجاة، وهمجٌ رعاعٌ أتباعُ كل ناعقٍ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلىٰ ركنٍ وثيق)[1]. وعليك أنْ تلاحظ في هذا الأثر الارتباط العكسي بين ضعف العقلية النقدية من جهة، ومن جهة أخرىٰ التعليم الصحيح، فأنت إما أنْ تكون عالمـًا أو متعلمـًا، أو لا تستطيع أنْ تفكر تفكيراً ناقداً يجعلك تميز بين صحيح الأمور ورديئها؛ وهي إشارة جلية في كون التعليم الصحيح المسبب للنجاة محتويـًا علىٰ أدوات التفكير النقدي اللازمة لتصحيح المسارات وتمييزها، ولذلك كانت مادة النقد بارزة في فنون الشريعة.

الدراما والأخبار والتقارير وأفلام الوثائقيات التي تعرض اليوم علىٰ عقول الجماهير غير سالمة من فكرة موجهة، تقتحم الوجدان، وتعبث بالأفكار، بطريقة أشبه ما تكون بتسرب المياه بين الحجارة والصخور، لتصل إلىٰ العمق والباطن.

وتحصين الناس من هذا الاقتحام الناعم مهمة المربين والمربيات علىٰ وجه التحديد، في أي موقع كانوا.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر ٢/ ١٦٦.

تطبيقات التربية النقدية

كانت الطريقة التي أيقظ بها الخليفةُ علي بن أبي طالب ﷺ القراءَ حينها لافتة للانتباه، حين طلب من المصحف أنْ يتكلم، فأنكروا عليه ذلك! لقد أيقظ في عقولهم مسألة بديهية كانت غائبة، وهي أنَّ تحكيم القرآن يحتاج إلىٰ رجل، وهذا سر مسألة التحكيم.

كم تحتاج برامجنا ومشاريعنا التربوية إلىٰ إيقاظ البديهيات الغائبة؟ وتدريب الشباب علىٰ التفريق بين الحقائق والآراء؟ والتعرف علىٰ المغالطات المنطقية ومصداقية المصادر المعلوماتية؟ والقدرة علىٰ استخدام قواعد الاستدلال وإصدار الأحكام؟

وفي الحديث الآنف الذكر حين قال ﷺ: «وهذا عسىٰ أنْ يكون نزعه عرق»؛ تربية علىٰ فحص الأسباب والنتائج، والتحقق من صحة الاستنباطات.

ومهارات التفكير النقدي يمكن أنْ تنحصر في ثلاث فئات أساسية[1]:

١. مهارات التفكير الاستقرائي.

٢. مهارات التفكير الاستنباطي.

---

(١) تعليم التفكير، د. فتحي جروان، ص٦٦.

٣. مهارات التفكير التقويمي.

وفي كل فئة من هذه المهارات ما يوجب علىٰ المربين أنْ يعتنوا بها في برنامجهم التربوي، وأنْ يُدربوا عليها الجيل الناشئ ويربوهم عليها، إذ تمثل المسار الصحيح في توجيه العقل وجهة صحيحة لا غلو فيها ولا جفاء.

وأول ما يجب علىٰ المربين في هذا الإطار أنْ (يراقبوا أنفسهم في تواصلهم مع الطلبة، وفي معالجاتهم للمشكلات والأسئلة التوضيحية، حتىٰ يكون سلوكهم – أعني المربين – نموذجاً يحتذىٰ به من قبل طلبتهم وهم يمارسون عملية التفكير، كما يجب عليهم أنْ يتابعوا استجابات طلبتهم وحواراتهم بكل اهتمام، ويتوقفوا لمناقشتهم كلما دعت الحاجة إلىٰ تأكيد أهمية واحد أو أكثر من معايير التفكير الناقد، حتىٰ يتمثلوها حاجة أساسية لسلامة تفكيرهم)[1].

لقد تكرر في كتاب الله تعالىٰ مواجهة المشركين بطلب الحجة الصحيحة علىٰ صدق دعاويهم التي فشت في أوساطهم حتىٰ صارت ديناً يدينون به. من ذلك قوله تعالىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن

(١) انظر: تعليم التفكير، د. فتحي جروان، ص٧٤.

كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الصافات:١٥١-١٥٩].

وتأمل التنوع في المحاكمات العقلية في هذه الآيات: ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ الآيات إلىٰ [الأنعام:١٤٠].

وغيرها العديد من المعالجات العقلية لموضوعات مهمة وخطيرة؛ جدير بنا أنْ نستلهمها في العمل التربوي المتنوع، وجدير بأنْ تكون التربية النقدية إحدىٰ المهمات التي تضطلع بها التربية الإسلامية.

* * *

تربية العقل الإبداعي

عن مغيرة الضبي قال: قيل لابن عباس رضي الله عنهما: كيف أصبت هذا العلم؟ قال: (لساناً سؤولاً، وقلباً عقولاً)[1]. وعن الحسن، قال: كان عمر ﷺ إذا ذكر ابن عباس قال: (ذلك فتىٰ الكهول، له لسان سؤول، وقلب عقول)[2].

لم أستغرب هذا التطابق بين كلام عمر بن الخطاب عن عبدالله بن عباس، وكلام ابن عباس عن نفسه، ذلك أن ابن عباس حسنة من حسنات الخليفة المحدَّث عمر بن الخطاب ﷺ، حيث اعتنىٰ الخليفة الفاروق بابن عباس لعشر سنوات؛ هي مدة خلافته، أيما اعتناء، وكان ابن عباس حين تولىٰ عمر الخلافة في الخامسة عشرة من عمره تقريباً. فلا غرابة بعد ذلك أنْ يتطابق القولان في الوصف، مما يدلُّ أيضاً علىٰ صدق هذا الوصف عليه، إذ لا يمكن الخطأ في مثل هذه الحال.

لم يكن ابن عباس ﷺ عالماً فحسب، ولا مفسراً للقرآن فحسب، لقد كان ظاهرة علمية فريدة، تعتني بتوليد الأسئلة، وإيراد الاعتراضات، وتشييد الحجج والأدلة، والغوص في المعاني والعلل. قال سعيد بن

---

(١) فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل ٢/ ٥٠٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٤.

جبير: (كان ناس من المهاجرين قد وجدوا علىٰ عمر في إدنائه ابن عباس دونهم، وكان يسأله. فقال عمر: أما إني سأريكم اليوم منه ما تعرفون فضله. فسألهم عن هذه السورة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر:١]، فقال بعضهم: أمر الله نبيه إذا رأىٰ الناس يدخلون في دين الله أفواجاً أن يحمده ويستغفره. فقال عمر: يا ابن عباس! تكلم. فقال: أعلمه متىٰ يموت، أي: فهي آيتك من الموت، فسبح بحمد ربك واستغفره)[١]. وعن ابن عباس قال: (دعاني عمر مع الأكابر، ويقول لي: لا تتكلم حتىٰ يتكلموا، ثم يسألني، ثم يقبل عليهم، فيقول: ما منعكم أن تأتوني بمثل ما يأتيني به هذا الغلام الذي لم تستو شؤون رأسه!)[٢].

وقال سعد بن أبي وقاص ﷺ: (ما رأيت أحداً أحضرَ فهماً، ولا ألبَّ لباً، ولا أكثرَ علماً، ولا أوسعَ حلماً من ابن عباس، لقد رأيتُ عمر يدعوه للمعضلات فيقول: قد جاءت معضلة، ثم لا يجاوز قوله؛ وإن حوله لأهل بدر)[٣].

وقال عبدالله بن مسعود ﷺ: (ولنعم ترجمان القرآن ابن عباس! ولو أنَّ هذا الغلام أدرك ما أدركنا، ما تعلقنا معه بشيء)[٤].

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٣٤٣.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٤٥.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٣٤٧.
(٤) المصدر السابق ٣/ ٣٤٧.

هكذا كان ابن عباس بين أكابر أصحاب النبي ﷺ يملأ أسماعهم فصاحة وذكاء، وأبصارهم توقداً وتوهجاً.

لا شكَّ أن توقد الذهن الذي تحلىٰ به ابن عباس موهبة ربانية منحه الله تعالىٰ إياها، فتوجها رسول الله ﷺ بالدعاء له، عن ابن عباس قال: «ضمني النبي ﷺ إلىٰ صدره، وقال: «اللهم علمه الحكمة»»[1]. غير أن ثمة سبباً آخر تلمسه من تقصي أخباره، تلكم التربية العُمَرية التي كانت تحفز فيه ملكة الإبداع والاستنباط، كما كانت تحفه بالأمان، وتفرش له بساطاً من الحرية لتساعده علىٰ ذلك دون خوف أو قلق. لقد كان عمر بن الخطاب يلام ويعاتب علىٰ ذلك، فقال رداً علىٰ تلك الملامة والعتاب: (لا يلومني أحدٌ علىٰ حب ابن عباس)[2]. وتقصي أخبار التربية العمرية لابن عباس لا تسعفه هذه المقالة.

تنمية الاستنباط

النبط في أصل لفظه هو الماء الذي يستخرج من البئر، قال ابن فارس: (النون والباء والطاء: كلمة تدل علىٰ استخراج شيء. واستنبطت الماء: استخرجته، والماء نفسه إذا استخرج نبط)[3].

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ٣٣ كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، ح٣٧٥٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٦.

(٣) مقاييس اللغة ٥/ ٣٨١.

فالاستنباط استخراج شيء من شيء آخر قد لا يشبهه. ولذا فإن الاستنباط جزء من الإبداع، والعرب تطلق ذلك عليه، قال ابن فارس: (قولهم: أبدعت الشيء قولاً أو فعلاً إذا ابتدأته لا عن سابق مثال. والله بديع السماوات والأرض، والعرب تقول: ابتدع فلان الركيَّ إذا استنبطه. وفلان بِدعٌ في هذا الأمر، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف:٩]، أي: ما كنت أول)[١]. فتأمل العلاقة بين الاستنباط والإبداع، والتي تمثل علاقة الجزء بالكل.

إنَّ أخبار ابن عباس تحمل شواهد علىٰ تشجيع الخليفة الفاروق له علىٰ الاستنباط، كما سبق ذكر ذلك في تأويل سورة النصر، حين رأىٰ ابن عباس فيها نعيَ النبي ﷺ. وعن إبراهيم التيمي قال: (خلا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذات يوم يحدث نفسه، فأرسل إلىٰ ابن عباس، فقال: كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد، وكتابها واحد، وقبلتها؟ فقال ابن عباس: يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن، فقرأناه وعلمنا فيم أنزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، ولا يعرفون فيم نزل، فيكون لكل قوم فيه رأي، فإذا كان لكل قوم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا، فزبره عمر وانتهره، فانصرف ابن عباس، ثم دعاه بعد؛ فعرف الذي قال، ثم قال: إيه أعدْ عليَّ)[٢]، وفي رواية أخرىٰ لهذه

---

(١) المصدر السابق ١/ ٢١٠.

(٢) سنن سعيد بن منصور١/ ١٧٦ كتاب فضائل القرآن، ح٤٢.

القصة قال ابن عباس ﷺ: (قدم علىٰ عمرَ رجلٌ، فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا. فقلت: والله ما أحب أن يسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة. قال: فزبرني عمر، ثم قال: مه! فانطلقتُ إلىٰ منزلي مكتئبًا حزينًا، فقلت: قد كنتُ نزلتُ من هذا بمنزلة، ولا أراني إلا قد سقطتُ من نفسه، فاضطجعت علىٰ فراشي، حتىٰ عادني نسوة أهلي وما بي وجع، فبينا أنا علىٰ ذلك، قيل لي: أجب أمير المؤمنين. فخرجتُ، فإذا هو قائم علىٰ الباب ينتظرني، فأخذ بيدي، ثم خلا بي، فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفًا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، **إنْ** كنت أسأتُ، فإني أستغفر الله وأتوب إليه، وأنزلُ حيث أحببت. قال: لتخبرَنِّي. قلت: متىٰ ما يسارعوا هذه المسارعة يحتقُّوا، ومتىٰ ما يحتقُّوا يختصموا، ومتىٰ ما اختصموا يختلفوا، ومتىٰ ما يختلفوا يقتتلوا. قال: لله أبوك **!**لقد كنتُ أكتمها الناس حتىٰ جئتَ بها)[1].

وعن يعقوب بن زيد، قال: (كان عمر يستشير ابنَ عباس في الأمر إذا أهمه، ويقول: غص غواص)[2].

إننا أحوج ما نكون إلىٰ تنمية الاستنباط وتربيته، والتشجيع عليه وتهذيبه؛ إذ نهدف إلىٰ تربية العقل الإبداعي، فإنَّ العقل الإبداعي

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٨.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٤٦.

لا يملُّ من الاستنباط، واستخراج الأحكام، وإعمال الدلائل، والغوص في المسائل، وهذا ما نريده بالتحديد في تربيتنا للناشئة في حلقات القرآن، ومجالس العلم والذكر، وصفوف الدراسة: أن يتعودوا هذه المهارات، وكما قال ابن القيم رحمه الله: (كثرة المزاولات تعطي الملكات، فتبقىٰ للنفس هيئة راسخة وملكة ثابتة)[1]، أيْ أنَّ ممارسة هذه المهارات ستؤدي إلىٰ تحويلها إلىٰ ملكة ثابتة في النفس، وعادة لا تنفك عنها. وهذا ما نعنيه بقولنا: عقل إبداعي، والذي يختلف عن مجرد التفكير الإبداعي، إذ تهدف التربية الإسلامية إلىٰ أنْ يصبح العقل قادراً علىٰ استيعاب المستجدات، واحتواء الآفاق، ورؤية المستقبل، وتقليب المضامين، وإثارة الأسئلة.

الأسئلة مفاتيح الإبداع

نحن أمام صنفين من الطلاب: طالب يستوعب ما نعلِّمه ويمضي، فإن لم يستوعبه فإننا سنعيد تعليمه بشكلٍ أو بآخر. وطالب يستوعب ما نعلِّمه ثم لا يمضي، بل يستوقفنا كأنه شخصٌ أُغلِق عليه فهمه، فهو يسألُ ثم يسألُ ثم يسأل! إنه طالب تتفجر لديه الأسئلة تباعـًا، وتتولد عنده الإيرادات والاعتراضات، ويسلك بنا دروبـًا وعرة ومتشعبة، وتشعر بأنه في حيرة وقلق حتىٰ تُشبع لديه تلك الأسئلة بالإجابات المناسبة.

---

(١) مفتاح دار السعادة ٢/ ٢٥١.

ولكنه في نهاية المطاف لم يستوعب ما نعلمه فحسب، بل هو قد استوعب مفاهيم كل شيء له علاقة بالمسألة التي علمناه إياها. إننا أمام مشروع (طالب سؤول) يذكرنا بحبر الأمة ابن عباس ﷺ صاحب اللسان السؤول، والقلب العقول، إذ قال: (إنْ كنتُ لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ)[1].

وقال ﷺ: (لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلمَّ نسأل أصحاب رسول الله ﷺ فإنهم اليوم كثير. فقال: واعجبًا لك يا ابن عباس! أترىٰ الناس يحتاجون إليك؛ وفي الناس من أصحاب النبي ﷺ من ترىٰ؟ فتركَ ذلك. وأقبلتُ علىٰ المسألة، فإنْ كان ليبلغني الحديث عن الرجل، فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي علىٰ بابه، فتسفي الريح عليَّ التراب، فيخرج فيراني فيقول: يا ابن عم رسول الله! ألا أرسلتَ إلي فآتيك؟ فأقول: أنا أحق أن آتيك فأسألك. قال: فبقي الرجل حتىٰ رآني وقد اجتمع الناس عليَّ، فقال: هذا الفتىٰ أعقل مني)[2].

إن قيمة المعارف ليس بفهمها وحفظها فقط، بل بما تثيره في الوجدان والعقل من أسئلة تثوّر المفاهيم، وتلتقط خيوط الإبداع، قال

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٤.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٣٤٢.

الزهري: (العلم خزائن، ومفاتيحها السؤال)[1]، ولذا فإن من واجبات المحاضن التربوية أنْ تعتني بتربية الناشئة علىٰ مفاتيح الإبداع الحقيقية، من خلال تشجيعها وتنميتها والترحيب بها.

لقد كان الفاروق ﷺ هكذا مع النبي ﷺ، كما دلت علىٰ ذلك العديد من أخباره، كقصته في الحديبية، ولقد كان النبي ﷺ لا يؤنب علىٰ شيء مما يورده عمر ﷺ، أما النبي ﷺ فقد كان بابه مشرعاً لكل الأسئلة والإيرادات، ويجيب عنها جميعاً بما يناسب الحال.

لقد كانت التربية القرآنية أيضاً تحث علىٰ هذا اللون من التربية، كما أخبرنا الله عن سؤال إبراهيم الكبير، إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة:٢٦٠].

ينبغي أنْ يسود في المحاضن التربوية اعتقادٌ بأنَّ الأسئلة ليست مشكلة، وإنما هي مظهر صحي، يؤشر علىٰ النباهة، وينبئ عن عقل إبداعي قادم.

الإبداع والمحاضن التربوية

لعلي لا أكون مبالغاً إذا قلت: إنَّ اهتمام المحاضن التربوية اليوم بتربية العقل الإبداعي ضرورة، فنحن في زمن المتغيرات المتسارعة

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٣٧٩.

والانفجار المعرفي والتقني الذي يصنع واقعـًا جديداً بكافة مكوناته، من معارف وعلاقات وبيئات ومسالك.

إننا إذ نهتم بتربية العقل الإبداعي فإننا نعدُّ الناشئة ليكونوا أقوياء في عالمهم الجديد، قادرين علىٰ قيادته، مؤثرين في ماجرياته، متخطين لعقباته، صانعي الحلول لكل مشكلاته، إننا بذلك ننتشلهم أن يكونوا غداً أسارىٰ تحت سيطرة المبدعين في شتىٰ أصقاع الأرض ومن مختلف الديانات والتوجهات، يرسفون في أغلال التأخر والتقليد.

ثم إنَّ تربية العقل الإبداعي ستواجه مشكلة الجمود التربوي والدعوي، بسيل من الحلول المشروعة والجذابة، والتي ستحدث تغييراً إيجابيـًا في واقع العمل التربوي والدعوي، حيث يتحول الإبداع من مبادرات متناثرة إلىٰ ثقافة سائدة.

وأول خطوة في تربية العقل الإبداعي أنْ يرىٰ التلميذ فنون الإبداع تتجلىٰ في شخصية معلمه، فهو يتعلمها بالممارسة والمعايشة أولاً وآخراً.

وعلىٰ الإدارة التربوية أنْ تضع المضمون المناسب لتربية الإبداع في نفوس التلاميذ علىٰ اختلاف أعمارهم، إذ لا يكفي في ذلك أنْ تقام بضع دورات في مهارات التفكير الإبداعي، رغم أهميتها، وإنما تصمم لها البرامج المناسبة، وترسم لأجلها السياسات الملائمة القادرة علىٰ تحقيق هذا الهدف التربوي.

الإبداع وداء الإلف

في الصفحات الأولىٰ من كتاب الله تنبهنا الآيات الكريمة إلىٰ خطورة الإلف والعادة علىٰ انغلاق العقل وجمود التفكير، فلا يقبل الانعتاق ولو كان حقـًا، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

من آفات الإلف أنه يضيق الأفق، ويقصر النظر، ويجمد التفكير. إنه يأسر العقل للماضي، ويسوغ له هذا الإسار، ويشوه مفهوم الثبات المتعلق بالمنهج ليجعله مستوعبـًا للوسائل والأدوات والتقنيات، وإن تربية العقل الإبداعي كفيلة بأن تدفع هذا الداء.

يقوم العقل الإبداعي بإثارة الأسئلة حول المألوفات، ثم هو يقوِّمها وينقدها؛ إذ يلزم التفكير الإبداعي أن يسبقه تفكيرٌ ناقد، ثم هو يصنع من تلك المألوفات أشياء غير مألوفة، وهذا هو جوهر الإبداع، ولعلك بهذا تتيقن أنَّ داء الإلف والعادة لا يجتمع والعقل الإبداعي، إذ هما يتناقضان، وعليه فإنَّ علىٰ المحاضن التربوية إذا عزمت علىٰ تربية العقل الإبداعي – الذي يستنبط ويكثر الأسئلة – أنْ تتنبه لخطورة هذا الداء، فإنَّ الطلاب إذا تربوا في محضن خاضع لسيطرة الإلف فلن تفلح كل وسائل التربية في تكوين ملكة الإبداع، حيث التأثير الأعمق

سيكون للمفاهيم التربوية التي تُغرس عن طريق المعايشة. لم يكن ابن عباس ﷺ يجد التشجيع من الخليفة الفاروق فحسب، بل كان يرىٰ الإبداع والاستنباط والاستشراف والخيال منه واقعاً في حياته الإدارية والفكرية، والشواهد علىٰ ذلك كثيرة، فعمر ﷺ هو صاحب فكرة جمع القرآن، وهو من دوَّن الدواوين، وأنشأ (الوزارات)، وأسس المدن الإسلامية ذات البعد الثقافي والاجتماعي الخاصين، وله ﷺ نظرات إبداعية في تفاصل شؤونه الإدارية والفكرية؛ ليس هذا موطن تفصيلها. لا شك أنَّ ذلك سيلقي بظلاله علىٰ التربية العقلية لابن عباس وغيره من الصحابة ﷺ أجمعين.

* * *

تنمية الطاقات

الإنسان الصالح هو الأمل المنشود من التربية الإسلامية علىٰ اختلاف عملياتها ومساراتها. والقوة تعتبر مظهراً من مظاهر الصلاح في الإنسان، أعني القوة التي ذكرها الله تعالىٰ في كتابه علىٰ لسان أخت مدين: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص:٦٢]. وهي هنا تمثل جانب القدرات والإمكانات الجسدية والعقلية، والمهارات العملية؛ الذي يجعل الإنسان قادراً علىٰ إتقان عمله وتجويده وتحسينه، بينما تمثل الأمانة جانب القيم والضمير والوجدان؛ الذي يوجِّه هذه القوة في الاتجاه الصحيح، ويجعل منها شيئًا مرضيًا مقبولاً في السماء وفي الأرض. قال الزمخشري: (وقولها: إنَّ خير من استأجرت القوي الأمين؛ كلامٌ حكيم جامع لا يزاد عليه، لأنه إذا اجتمعت هاتان الخصلتان، أعني الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك، وتم مرادك)[1].

وكما أولت التربية الإسلامية عنايتها الفائقة في غرس الأمانة؛ فإنها كذلك أولت عنايتها بتنمية القوة بمعناها الذي أسلفت، فعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوي، خير وأحب

(١) الكشاف ٣/ ٤٠٣.

إلىٰ الله من المؤمن الضعيف»[1]. وإنَّ علىٰ محاضن التربية أنْ تبذل جهدها في تكميل جانب القوة لدىٰ مستفيديها كما تبذل جهدها في تكميل جانب الأمانة لديهم، لأنهما جانبان مكملان بعضهما بعضًا، ولذا قال السعدي: (وهذان الوصفان ينبغي اعتبارهما في كل من يتولىٰ للإنسان عملاً بإجارة أو غيرها. فإنَّ الخلل لا يكون إلا بفقدهما، أو فقد إحداهما، وأما باجتماعهما، فإن العمل يتم ويكمل)[2].

وإنَّ إهمال جانب القوة في التربية مسلك مُحْدث، لم يعرفه جيل الصحابة ﷺ، ولا فقهاء التربية الإسلامية، وإنما نشأ نتيجة لتغلغل الفكر الصوفي؛ الذي يؤسس بناء الإنسان علىٰ السلبية والضعف، متأثراً بمقالة الجبرية، ومن هنا دبَّ الضعف في الأمة، حيث أصبح الفرد مجرد ريشة في مهب الريح، تقلبه يمنة ويسرة. وفي ذلك عبرة للمربين والمربيات: أنَّ قوة الأمة هي من قوة أفرادها الذين يتربون في محاضنهم، وأنَّ عليهم أن يبنوا أجيالاً قوية تملك المهارات، وتستثمر المواهب والقدرات في نفع المجتمع، وعمارة الأرض، وعبادة الله.

تحديد الاتجاه يسبق المسير

أول مسألة في تربية الطاقات هي اكتشاف الذات، ومعرفة الإنسان

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٥٢ كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ح٢٦٦٤.
(٢) تفسير السعدي، ص٦١٤.

بجوانب شخصيته. أي أنَّ علىٰ المربي والمربية إذ يقومان بمهمة تربية الطاقات أن يكتشفوا كُنْهَ الطلاب والطالبات، وأنْ يساعدوهم في تحديد قدرات كل فرد وميوله واتجاهه، وفق أسسٍ موضوعية علمية، وليست مجرد انطباعية فحسب، وهذا التحديد والاكتشاف يمثل في عصرنا تحديـًا جديداً لدىٰ العمل التربوي، فلقد ثبتت فاعليته العالية في صناعة القوة والإيجابية لدىٰ الأفراد بينما لا تزال المؤسسات التربوية لا توليه عنايتها بالقدر الكافي.

في وقفة رائعة من فقيه التربية الإسلامية العلامة ابن القيم رحمه الله يلفت فيها عناية المربين والمربيات إلىٰ هذه المسألة، فيقول:

(ومما ينبغي: أن يعتمد حال الصبي، وما هو مستعدٌ له من الأعمال ومهيأٌ له منها؛ فيعْلمَ أنه مخلوقٌ له، فلا يحمِله علىٰ غيره؛ ما كان مأذونـًا فيه شرعـًا، فإنه إنْ حملَه علىٰ غير ما هو مستعدٌ له لم يفلح فيه، وفاتَهُ ما هو مهيأٌ له.

فإذا رآه حسَنَ الفهم، صحيحَ الإدراك، جيدَ الحفظ واعيـًا، فهذه من علامات قبوله وتهيُّئِهِ للعلم لينقشه في لوحِ قلبِه ما دام خاليـًا، فإنه يتمكنُ فيه ويستقر، ويزكو معه.

وإن رآه بخلاف ذلك مِن كل وجهٍ، وهو مستعدٌ للفروسيةِ وأسبابِها، من الركوب والرمي واللعب بالرمح، وأنه لا نفاذَ له في

العلم، ولم يُخلَق له مكَّنَهُ من أسباب الفروسية والتمرُّن عليها، فإنه أنفع له وللمسلمين.

وإن رآه بخلاف ذلك، وأنه لم يُخلَق لذلك، ورأىٰ عينَه مفتوحةً إلىٰ صنْعةٍ من الصنائع مستعداً لها قابلاً لها، وهي صناعة مباحة نافعة للناس فليُمكِّنه منها.

هذا كله بعد تعليمه له ما يحتاج إليه في دينه، فإنَّ ذلك ميسَّرٌ علىٰ كل أحد لتقوم حجة الله علىٰ العبد، فإنَّ له علىٰ عباده الحجةُ البالغة، كما له عليهم النعمةُ السابغة، والله أعلم)[1]. إنَّ هذا النقل يعني باختصار: أن جهودنا التربوية ستنتهي بالإخفاق إنْ كانت في طريقٍ خاطئة.

إنَّ اكتشاف الذات -كمهمة تربوية- ليست مسألة جديدة في التربية الإسلامية، بل هي أصيلة قديمة قِدم النبوة المحمدية، هذا زيد بن ثابت ﷺ أُتي به النبي ﷺ مقدمه المدينة، فقالوا: يا رسول الله! هذا غلام من بني النجار، وقد قرأ مما أُنزل عليك سبع عشرة سورة. قال: فقرأتُ علىٰ رسول الله ﷺ فأعجبه ذلك، وقال: «يا زيد! تعلَّمْ لي كتابَ يهود؛ فإني والله لا آمنهم علىٰ كتابي». قال: (فتعلمته، فما مضىٰ لي نصف شهر حتىٰ حذقته، وكنت أكتبُ لرسول الله ﷺ إذا كَتَبَ إليهم)[2].

---

(١) تحفة المودود، ص٢٤٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٢٨.

فتأمل قدرة المربي الكبير ﷺ علىٰ اكتشاف قدرات زيد بن ثابت علىٰ تعلُّم اللغات، وهو جزء مما يسمىٰ اليوم (الذكاء اللغوي)، ثم وجَّهه إلىٰ استثماره، فكان أن أتقنَ لغةً بأكملها في نصف شهر. لم يقف هذا الذكاء اللغوي عند هذا الحدِّ، فقد تعلم ﷺ الفارسيةَ من رسول كسرىٰ في ثمانية عشر يومـًا، وتعلم الحبشية والرومية والقبطية من خُدَّام رسول الله ﷺ[1].

يحسن بمحاضن التربية أنْ تكتشف كُنْهَ مستفيديها، وأنْ تساعدهم علىٰ الإجابة عن السؤال المهم: من أنا؟

ما طبيعة شخصيتي؟ ما قدراتي وذكاءاتي؟ ما نوع ميولي المهنية؟

وتقوم بذلك عبر عدد من المقاييس العلمية والإجراءات التربوية. إننا سنساعد هؤلاء الطلاب وهؤلاء الطالبات علىٰ الاستقرار النفسي بإجابتنا عن سؤال: من أنا؟ وسنساعدهم علىٰ شق طريقهم في أمان وبإيجابية، وبهذا سيكونون ناسـًا صالحين، وذلك هدف التربية الإسلامية، حيث امتلكوا القوة، وغرسنا فيهم قيم الأمانة.

نحن أمام أمرين: اكتشاف الذات، وتوجيه الذات، وعلىٰ المحاضن التربوية أن تقوم بنزع الحصة المعتادة للتوجيه وإعطائها

---

(١) البداية والنهاية ٨/ ٢٨.

للاكتشاف، كما عليها أن تعطي حصة الاكتشاف المعتادة للتوجيه..؛ هذا هو الميزان الصحيح في تربية الطاقات.

المناخ الجيد لتربية الطاقات

لنستطيع أنْ نبني القوة في طلابنا وطالباتنا يجب أنْ يتوفر شرطان؛ إضافة إلىٰ تحفيزنا: الأمن، والحرية[1].

الأمن مبتغىٰ الطلاب والطالبات، حيث لا خوف من اللوم، ولا قلق من العقاب، حين يمثل المحضن التربوي بيئة آمنة للانطلاق والإبداع والابتكار وتنمية الموهبة الخاصة للفرد؛ فسيكون ذلك فرصة له لشق طريقه الخاص الذي ينفع به أمته، ويعمر به الأرض، ويحقق به معنىٰ العبادة. إننا حين نستعيض عن اللوم بالحوار، وعن العقاب بالتوجيه ستتحول محاضننا التربوية إلىٰ مصانع للأفذاذ.

والحرية مبتغىٰ الطلاب والطالبات أيضـًا، أعني حرية تجريب قدراتهم وذكاءاتهم وإبداعاتهم، إذ تعمل القيود والتنبيهات الكثيرة علىٰ صناعة القلق، وتفضيل خيارات السلبية والجمود والتبعية، وهذا خلاف هدف التربية الإسلامية.

ترك مساحة كافية للطلاب والطالبات يولد الإبداع. إن المهمة الكبرىٰ تكمن في الاكتشاف، وغرس قيم الأمانة، وما عدا ذلك

---

(١) انظر: بناء الأجيال، ص٨١-٨٢.

فمتابعة يسيرة لحركة الإبداع المتولدة. حين أمر رسول الله ﷺ زيداً بتعلم لغة اليهود تركَ له التفاصيل، فكان أنْ تعلَّمَ زيد هذه اللغة في مدارس اليهود (ماسكة)[1]، وكان حينها طفلًا في الحادية عشرة من عمره تقريباً! ثم هو تعلم الفارسية من رسول فارس، وباقي اللغات من خدام النبي ﷺ.

نحن مخطئون حين نظنُّ – كمربين – أنَّ علينا أنْ نرسم لطلابنا وطالباتنا طرائق إبداعهم، وسُبل مواهبهم، إنهم يعرفون ما لا نعرف، ويعلمون ما لا نعلم، ويدركون ما لا ندرك، ولذا فإن علينا أنْ نعطيهم حرية الرسم، ونقوم نحن بتوجيه منظم معقول.

يحكي عبد الله بن مسعود ﷺ قصته مع النبي ﷺ وأبي بكر حين كان يرعىٰ الغنم لعقبة بن أبي معيط، وفيها أنه قال للنبي ﷺ: علمني من هذا القول. فقال النبي ﷺ: «إنك غلام معلَّم». قال: فأخذت من فِيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد[2]. لاحظ أثر حرية تجريب الذات بعد اكتشافها!.

د. عبد الكريم بكار – حفظه الله – سَجل ملاحظة مهمة في هذا الإطار، يقول: (إنَّ بعضنا يتخوف في بعض الأحيان من أشياء لا تدعو

---

(١) الطبقات الكبرىٰ ٥/ ٣٠٨.

(٢) المصدر السابق ٣/ ١٣٩.

إلىٰ الخوف، ويحيل بعض المسائل الظنية المختلف فيها، أو بعض الأمور ذات الدلالة الرمزية إلىٰ مسائل قطعية لا يصح الاقتراب منها. وبعض الخيِّرين الذين يديرون مؤسسات تربوية يبالغون في الأخذ بمبدأ سد الذرائع، فيمنعون بعض المباحات، ويضبطون الأمور إلىٰ حد التنفير. وكثيراً ما تعاني مجتمعاتنا من الغموض؛ حيث تنطمس الحدود الفاصلة بين الجائز والممنوع، والنافع والضار؛ مما يجعل الناس خائفين من أشياء عديدة لا تخيف، ولا ينبغي أنْ تخيف أحداً)[1].

هذه الملاحظة جديرة بالمدارسة، لا لفتح الباب علىٰ مصراعيه، وإنما لتوفير مناخ مناسب لتربية الطاقات، والأمور تقدر بقدرها.

التوجيه لا يعني التحكم

لا شك أنَّ توجيه الإبداع والابتكار والقدرات والإمكانات من أهم واجبات المربي والمربية. ولكن ما مضمون هذا التوجيه؟

إنه التوجيه الذي يحافظ علىٰ بوصلة الأهداف التربوية، وليس علىٰ الخطوات والإجراءات، لأن الأخير هو تحكُّم، وليس توجيهـًا، وبه يتخَّرج العبيد لا القادة، أما الأول فهو الذي يحافظ علىٰ بقاء الطالب والطالبة في مربع من التجريب الحر، دون أنْ يمس الأهداف

---

(١) بناء الأجيال، ص٨٢.

التربوية بما يخدشها. وهذا يعني أن الطالب والطالبة هما اللذان يقومان بإعداد خطة إبداعهما، ويقترحان طريقة مسيرهما في تربية الطاقة، وإنما يقوم المربي والمربية بمراقبة الأطر العامة التي تضمن صحة المسير، دون التدخل والتحكم في التفاصيل، ويساعدانهما فيما يحتاجان إليه في إبداعهما.

كان عمر بن الخطاب ﷺ حريصاً علىٰ طلب العلم، ولقد تفقه وتعلم حتىٰ صار من فقهاء الصحابة وعلمائهم، فكان من اجتهاده وإبداعه في الطلب أنِ ابْتكر طريقة يوفق فيها بين طلبه للعلم وسعيه لطلب الرزق، يقول: (كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول علىٰ رسول الله ﷺ، ينزل يوماً، وأنزل يوماً، فإذا نزلتُ جئتُه بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزلَ فعلم مثل ذلك)[1]. لاحظ هنا أنَّ طريقة تعلمه تناسبه، وباختياره هو لأنه أعلم بما يناسبه، لقد كان هذا الأمر متاحاً، ولم يكن ذلك محل ذم وعيب، ولكن في الجانب الآخر؛ وحين أتىٰ ﷺ إلىٰ النبي ﷺ بكتابٍ من عند أهل الكتاب، فقال: (يا رسول الله! إني أصبت كتاباً حسناً من بعض أهل الكتاب)، حينها غضب رسول الله ﷺ وقال: «أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ والذي نفسي بيده لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيحدثونكم بحق فتكذبوا

(١) أخرجه البخاري ١/ ٢٩ كتاب العلم، باب التناوب في العلم، ح٨٩.

به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده لو أن موسىٰ كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني»[1]. حين يكون الخطأ منهجيًا، ويمس الأطر العامة؛ فإنَّ ذلك يستدعي وقفة تصحيحية من المربي والمربية.

وهو التوجيه الذي يثوِّر المشاريع والمبادرات، ويجعل من الأفكار الإبداعية – التي يسمعها الطالب والطالبة في ماجريات واقعهم التربوي – مادة ملهِمة ومحفزة للعمل المنتج النافع.

انظر إلىٰ أثر الأستاذ حين يطلق تلاميذه في فضاء العمل المنتج، وحين يغرس فيهم الثقة، وحين يثوِّر المشاريع الإبداعية، يقول البخاري رحمه الله: (كنا عند إسحاق بن راهويه، فقال: لو جمعتم كتابًا مختصراً لصحيح سنة رسول الله ﷺ. قال: فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع الجامع الصحيح)[2]. لقد كانت نتيجة هذا الإلهام والتحفيز – بعد توفيق الله تعالىٰ – أنْ سُخرت الجهود في جمع صحيح الأحاديث، حتىٰ أصبح لونًا من ألوان علم الحديث انبرىٰ له عددٌ من الأئمة. وإنْ تفاوتت نتائج تلك الجهود في جمع الصحيح، فإنَّ ذلك حظُّ كل واحد منهم، ونتاج علمه وفكره ورأيه وطريقته، ويبقىٰ أنَّ الانصراف إلىٰ هذا اللون من علم الحديث كان سببه التحفيز والإلهام، لا الكبت والخوف من الأخطاء.

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ٢/ ٨٠٥.

(٢) فتح الباري ، المقدمة، ص٧.

ويتجلىٰ هذا النوع من التوجيه في قول النبي ﷺ لزيد بن ثابت رضي الله عنه في الحديث المتقدم: «تعلَّم لي كتاب يهود، فإني لا آمنهم علىٰ كتابي». حيث لم يقتصر علىٰ التحفيز والإلهام، بل تعدىٰ ذلك إلىٰ مرحلة الإفادة الحقيقية من طالب لا يزال في بدايات طريقه، إنها مسألة؛ وإنْ كانت تعدُّ في وقتنا هذا محل إشكال ونظر وتأمل، إلا أنها في حقيقة الأمر بديهية من بديهيات التربية النبوية.

إنَّ الطلاب والطالبات لهم أشد حاجة إلىٰ هذا التحفيز والتثوير والإلهام، وأشد حاجة إلىٰ أنْ نطلق لهم عنان المبادرات والابتكارات، ليتحقق هدف التربية الإسلامية فيهم، وليكونوا أقوياء إيجابيين نافعين.

* * *

رعاية الحاجات

في لفتة أنثوية تربوية تقول عائشة رضي الله عنها: (اقدروا قدر الجارية العرِبة، الحديثة السن، حريصةً علىٰ اللهو)[1].

والجارية هي الفتاة الشابة، قال النووي رحمه الله: (معناه أنها تحب اللهو والتفرج والنظر إلىٰ اللعب حبًا بليغًا، وتحرص علىٰ إدامته ما أمكنها، ولا تملُّ ذلك إلا بعذر من تطويل، والعرِبة هي الفتاة المشتهية للعب المحبة له)[2].

جاءت هذه اللفتة تعقيبًا علىٰ القصة التي أخرجها مسلم وغيره عنها، إذ تقول: (دخل عليَّ أبو بكر، وعندي جاريتان من جواري الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث، قالت: وليستا بمغنيتين. فقال أبو بكر: أبمزمور الشيطان في بيت رسول الله ﷺ!؟ وذلك في يوم عيد، فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، إنَّ لكل قوم عيداً، وهذا عيدنا». وفي لفظ له: (أنَّ أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان، في أيام منىٰ، تغنيان وتضربان، ورسول الله ﷺ مسجىٰ

(١) أخرجه مسلم ٢/ ٦٠٨ كتاب صلاة العيدين، باب الرخصة في اللعب الذي لا معصية فيه في أيام العيد ح٨٩٢.
(٢) شرح النووي ٦/ ٤٢٤.

بثوبه، فانتهرهما أبو بكر، فكشف رسول الله ﷺ عنه، وقال: «دعهما يا أبا بكر، فإنها أيام عيد». وقالت: رأيت رسول الله ﷺ يسترني بردائه وأنا أنظر إلىٰ الحبشة، وهم يلعبون، وأنا جارية). وفي لفظ له أيضـًا: (فإما سألتُ رسولَ الله ﷺ، وإما قال: «تشتهين تنظرين؟» فقلت: نعم، فأقامني وراءه، خدي علىٰ خده، وهو يقول: «دونكم يا بني أرفدة». حتىٰ إذا مللتُ قال: «حسبك؟». قلت: نعم. قال: «فاذهبي». وفي لفظ: (فدعاني النبي ﷺ فوضعت رأسي علىٰ منكبه، فجعلتُ أنظر إلىٰ لعبهم، حتىٰ كنت أنا التي أنصرف عن النظر إليهم). وقد كان لعب الحبشة سنة قدومهم، أي: (سنة سبع، فيكون عمرها حينئذٍ خمس عشرة سنة)[1].

إنها رضي الله عنها تتحدث عن حب الفتاة اللهوَ باعتباره حاجة نفسية فطرها الله عليه، والأمور الفطرية ليست مضادة لشرع الله تعالىٰ كما هو معلوم، وإنَّ مما يتوجب فعله مراعاة هذه الحاجة الفطرية النفسية لدىٰ البنات، كما فعل ذلك رسول الله ﷺ معها..؛ هكذا تتحدث عائشة رضي الله عنها.

لقد كان الرسول المربي ﷺ يدرك أن إشباع تلك الحاجات لدىٰ عائشة رضي الله عنها حقٌّ عليه، وفي ذات الوقت هو بناء لشخصيتها، إذ بإشباعها تكمل النفس، وتتجه بها إلىٰ الاستقرار،

(١) فتح الباري ٢/ ٥١٦.

وتخلصها من التوتر والاضطراب، وتضيق مساحة الهروب من الطاعات والفضائل، وبذلك فإنَّ إشباع الحاجات ليس من الأمور المباحة فحسب، بل هو مطلب تربوي شرعي في حق من يكون تحت أيدينا في الأسرة والمحضن التربوي، وبهذا يتحمل المربون عبئًا تربويًا في تنشئة الشخصية بكامل مكوناتها، وليس في الجانب الروحي فقط.

كانت عائشة رضي الله عنها بحاجة إلىٰ اللهو واللعب، كما نصت علىٰ ذلك في الروايات السابقة، وكانت بحاجة إلىٰ القرب من حبيبها ﷺ إلىٰ حدِّ الالتصاق، وقد فعَلَتْ، وكانت بحاجة إلىٰ معرفة منزلتها عند حبيبها ﷺ كما جاء في رواية أخرىٰ: (فقال لي: «أما شبعتِ؟ أما شبعتِ؟». فجعلت أقول: لا. لأنظر منزلتي عنده)[1].

إشباع الحاجات مطلب أم ترف؟

الهدف الأُم الذي تسعىٰ المحاضن التربوية إلىٰ تحقيقه يتلخص في تكوين الشخصية الإسلامية التي ترضي الله تعالىٰ من خلال صلاحها في نفسها، ومن خلال نفعها لمجتمعها وأمتها. وعلىٰ هذا الأساس تتمحور التربية الإسلامية، بكافة أشكالها وأطيافها.

---

(١) أخرجها الترمذي ٥/ ٦٢١ كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ح٣٦٩١.

كل الأهداف التربوية التي تصوغها أقلام المربين إنما هي اللبنات التي يجب أنْ يتشكل منها بناء الهدف الأم، أعني تكوين الشخصية الإسلامية.

وهنا ينبغي التذكير بأنَّ الشخصية الإسلامية لا تتكون من خلال تغذية الإيمان، وتشييد الأخلاق فحسب، بل هناك عناصر ومكونات أخرىٰ لها نصيبها من التكوين، وحظها من التشكيل، كتهذيب الغرائز، والعيش مع القرآن الكريم، وإشباع الحاجات...، فهل إشباع الحاجات ترفٌ معنوي يعمل المربون علىٰ تحقيقه، أو تحقيق جزء منه بدافع استقطاب الطلاب، أو استبقائهم، أو ترويضهم؟ أم أنه مطلب تربوي له دوره في بناء الشخصية، وتكميل الفضائل وتسوية النفس؟

دعوني أُعِدْ طرحَ السؤال بشكل آخر

هل إشباع حاجات الطلاب يعتبر أمراً ثانوياً، يمكن الاستغناء عنه لضيق الوقت ونحو ذلك من الأسباب؟ أم هو أمر أساسي يجب أنْ يكون في منظومة الأهداف التربوية، وفي قائمة البرامج العملية؟

النظرية الحديثة للتربية ترىٰ الثاني، وهي بذلك تقترب من النظرية الإسلامية، التي ترىٰ أنَّ إشباع الحاجات مطلب تربوي يبني الشخصية الإسلامية السوية الإيجابية، ويفترقان في الكيفيات والمنطلقات والمقادير، فيما لا يناسب تفصيله هنا.

إذن علينا – ونحن نقوم بواجباتنا التربوية – أنْ نجعل من إشباع الحاجات النفسية أمراً أساسيـًا في عملنا التربوي، إذْ يفضي إلىٰ البناء المتكامل والشمولي للشخصية، ويحقق فيها معنىٰ التكريم الذي ميز الله به الإنسان عن غيره من المخلوقات: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٧٠]. ولذلك عقبت عائشة رضي الله عنها بذلك التعقيب الذهبي، حين قالت: (اقدروا قدر الجارية العرِبة، الحديثة السن، حريصةً علىٰ اللهو).

قال الماوردي: (فمن ذلك حال الإنسان في مأكله ومشربه، فإنَّ الداعي إلىٰ ذلك شيئان: حاجة ماسة، وشهوة باعثة. فأما الحاجة فتدعو إلىٰ ما سد الجوع، وسكن الظمأ، وهذا مندوب إليه عقلاً وشرعـًا، لما فيه من حفظ النفس، وحراسة الجسد، ولذلك ورد الشرع بالنهي عن الوصال بين صوم اليومين، لأنه يضعف الجسد، ويميت النفس، ويُعجِز عن العبادة، وكل ذلك يمنع منه الشرع، ويدفع عنه العقل، وليس لمن منع نفسه قدر الحاجة حظ من بر، ولا نصيب من زهد، لأنَّ ما حرمها من فعل الطاعات بالعجز والضعف أكثر ثوابـًا، وأعظم أجراً...)[1].

(١) أدب الدنيا والدين، ص٣٠٦.

التربية الإسلامية لا تلغي الحاجات، بل تدعو إلىٰ إشباعها لما تؤدي إليه من استقرار نفسي يبعث النفس إلىٰ المزيد من القربات والطاعات، وها أنت ترىٰ فقهاء التربية الإسلامية يوصون ويحضون علىٰ إشباعها، ويذمون التقصير في شيء من ذلك، لما يؤول إليه هذا التقصير من اضطراب النفس وذبول الشخصية؛ وهما اللذان يدفعان الإنسان إلىٰ الهروب من مربع القربات والطاعات. ألا ترىٰ أنَّ نبينا ﷺ استعاذ من الهم والحزن، إذ يمثلان تضخماً في جانب الحاجات، ونقصاً في جانب إشباعها، فتعوذ منهما لما يؤولان إليه من تثبيط النفس عن الطاعة، ودفعٍ إلىٰ الإشباع المحرم.

إنَّ المحاضن التربوية معنية برعاية حاجات الطلاب المختلفة، حتىٰ تكون قادرة علىٰ بناء الشخصية الإسلامية المستقرة، وتكوين الإنسان الصالح السوي، وهذا من فقه النفوس التي سواها رب العالمين، وقد أشار ابن تيمية إلىٰ نقطة مهمة في هذا الأمر، إذ يقول: (إنَّ النفوس لا تقبل الحق إلا بما تستعين به من حظوظها التي هي محتاجة إليها، فتكون تلك الحظوظ عبادة لله مع النية الصالحة)[1]، وهو بهذه الإشارة يجعل من إشباع الحاجات مما يؤجر عليه الإنسان إذا حضرت النية الصالحة، وهذا يعني تحول الإشباع من كونه أمراً مباحاً ولذة حاضرة إلىٰ كونه قربة لله تعالىٰ، بل إنَّ الله تعالىٰ يمتن

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٨/ ٣٦٦.

علىٰ نبينا ﷺ بأنه قد آواه يتيمـًا، وهداه من الضلالة، وأغناه من الفقر: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحىٰ: ٦-٨] فقرن بين الهداية وبين الإيواء والإغناء، وجعلهما في مصفٍ واحد.

تنوع الحاجات

لا شك أنَّ أعظم حاجة لدىٰ الإنسان هي الحاجة إلىٰ القرب من الله تعالىٰ، وتلمس رضاه، وتأليهه وعبودية القلب له، إذ تتمزق الروح تمزقـًا مريعـًا حين لا تشبع حاجتها من الاقتراب من الله تعالىٰ، إنها مسألة تتعلق بروح الإنسان وقلبه، قال ابن تيمية رحمه الله: (القلب لا يصلح ولا يفلح ولا يسر ولا يطيب ولا يطمئن ولا يسكن؛ إلا بعبادة ربه، وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كل ما يلتذ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن، إذ فيه فقر ذاتي إلىٰ ربه من حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور، واللذة والمتعة، والسكون والطمأنينة)[1].

وابن تيمية أيضـًا يفسر سقوط الإنسان في العشق بانصرافه عن عبادة الله تعالىٰ وإعراضه عنه، أيْ أنَّ القلب سيظل يبحث لاهثـًا عن محبوب يؤمُّ قلبه نحوه، فقال: (ومن أعظم أسباب هذا البلاء إعراض

---

(١) العبودية، ص٩٧.

القلب عن الله؛ فإنَّ القلب إذا ذاق طعم عبادة الله، والإخلاص له لم يكن عنده شيء قط أحلىٰ من ذلك ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب. والإنسان لا يترك محبوباً إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه.)[1].

وفي الإنسان العديد من الحاجات التي تتمحور حياته حول إشباعها، إضافة إلىٰ حاجة القلب إلىٰ العبادة والتأله.

وقد اجتهدَت المدارس التربوية في تعداد هذه الحاجات وتصنيفها، ومن أشهر هذه التصنيفات: هرم ماسلو، وللدكتور عبدالعزيز النغيمشي تصنيف بارع، استقاه من قراءته الإسلامية للتربية.

الحاجة إلىٰ اللهو والترويح، والحاجة إلىٰ الهوية، والحاجة الاجتماعية المختلفة الأطوار، والحاجة إلىٰ التقدير والقبول، والحاجة إلىٰ التعلم والمعرفة، والحاجة إلىٰ الغذاء، والحاجة إلىٰ الصحة، وغير ذلك من الحاجات المختلفة، فطرها الله في الإنسان، وهيأه للسعي لإشباعها، وجعل لإشباعها طرائق وكيفيات ومقادير.

واجب المربي اليوم أنْ تكون الحاجات - شاملة أنواعها وطرق إشباعها - أحد أهم المعارف التي عليه أنْ يتعلمها بشكل جيد، إذ تمثل محوراً من محاور العمل التربوي، فإنَّ النفس إذا استقرت وتهذبت صلحت ونفعت، وإذا صلحت ونفعت فيعني ذلك تحقق هدف التربية الإسلامية.

---

(١) المصدر السابق، ص٩٩.

وسيرة النبي ﷺ مليئة بالشواهد علىٰ إشباع الحاجات، فهو مرة يزور المريض ويؤنسه، فيشعر هذا المريض بالارتياح والسكون لأن حاجته إلىٰ التقدير قد أشبعت بزيارة نبي الأمة له، ولأن حاجته إلىٰ الصحبة الودودة التي تخفف عنه شدة المرض قد أشبعت أيضاً.

ومرة يعلِّم فقيراً طريقة التكسب، ويتابعه في ذلك، فيشعر هذا الفقير بالارتياح لأن حاجته إلىٰ إثبات ذاته قد أشبعت باستغنائه عما في أيدي الناس، فأدىٰ ذلك إلىٰ إشباع حاجته إلىٰ التقدير والقبول، كما أنَّ حاجته إلىٰ الأمن الاجتماعي قد أشبعت إذ يدرك أنَّه في حال تعثره يوجد من ينهض به.

ومرة يطيل ﷺ السجود لأنَّ سبطه الطفل قد ارتحله، فكِره أنْ يقطع عليه لهوه أو يحْرِمه من عطف الجد. ومرة يوصي بدواء محدد لمريض بعينه، ومرة يبتسم في وجه صاحبه،... وهكذا من المرات التي لا تحصر في تلمسه ﷺ لحاجات الناس. إنه الشعور المسؤول عن واجب التربية.

ميزان الحاجات

سعيُ الإسلام في منحاه التربوي إلىٰ إشباع الحاجات يتمثل منهجاً وسطاً عدلاً. والميزان حتمٌ في التربية كما هو حتم في كل

شأنٍ من شؤوننا: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ [الرحمن:٧-٨].

ويجب علىٰ أهل التربية إقامة الميزان التربوي للحاجات مرتين:

مرة لمقادير الحاجات بعضها مع بعض، إذ يجب أن تُشبع الحاجات دون الإخلال بحاجة أو بأخرىٰ، ولا يُنظر إلىٰ الحاجات باعتبار بعضها أساسي، وبعضها ثانوي، فهي كلها مكملة بعضها لبعض، متممة له.

نعم؛ للحاجات سلم تترتب فيه أولويات الإشباع، إذ يقتضي هذا السلم المفاضلة بينها حين التزاحم فقط، وليس التخلي عنها في غيره.

ومرة أخرىٰ يقيم أهل التربية الميزان لضبط مقدار إشباع كل حاجة من الحاجات، فلا إفراط ولا تفريط، قال الماوردي: (شهوة الزيادة علىٰ قدر الحاجة، والإكثار علىٰ مقدار الكفاية ممنوع منه في العقل والشرع). وقال: (وأما النوع الثاني وهو شهوة الأشياء اللذيذة ومنازعة النفوس إلىٰ طلب الأنواع الشهية، فمذاهب الناس في تمكين النفس منها مختلفة، فمنهم من يرىٰ أنَّ صرف النفس عنها أولىٰ، وقهرها عن اتباع شهواتها أحرىٰ ليذل له قيادها، ويهون عليه عنادها. وقال آخرون: تمكين النفس من لذاتها أولىٰ، وإعطاؤها ما اشتهت من المباحات أحرىٰ، لما فيه من ارتياح النفس بنيل شهواتها، ونشاطها بإدراك لذاتها. وقال آخرون: بل

توسط الأمرين أولىٰ، لأن في إعطائها كل شهواتها بلادة، والنفس البليدة عاجزة، وفي منعها عن البعض كف لها عن السلاطة، وفي تمكينها من البعض حسمٌ لها عن البلادة. وهذا لعمري أشبه المذاهب بالسلام، لأن التوسط في الأمور أحمد)[1].

وقد قدمت شريعتنا الحكيمة معايير التوسط والاعتدال في إشباع الحاجات، من خلال ما يتألف من نصوص الوحي، وما سطره علماء الملة من الأحكام الفقهية وقواعدها ومقاصدها، قال رسول الله ﷺ: «كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير إسراف ولا مخيلة»[2]. وفي هذا الإطار تُفهم مسألة الضرورات الخمس تربويـًا.

ومهما يكن؛ فإنَّ علىٰ أهل التربية أنْ يعتنوا عناية بالغة بمسألة الحاجات ورعايتها، دراسة وفهمـًا وتخطيطـًا وعملاً، كخطوة جبارة في تطوير العمل التربوي، والله الموفق.

* * *

(١) أدب الدنيا والدين، ص٣٠٧.

(٢) أخرجه البخاري معلقـًا، كتاب اللباس، باب قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ﴾.

صناعة الرجال

عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر ﷺ أنه قال لأصحابه: تمنوا. فقال بعضهم: أتمنىٰ لو أنَّ هذه الدار مملوءة ذهبـًا أنفقه في سبيل الله وأتصدق. وقال رجل: أتمنىٰ لو أنها مملوءة زبرجداً وجوهراً فأنفقه في سبيل الله وأتصدق. ثم قال عمر: تمنوا. فقالوا: ما ندري يا أمير المؤمنين، فقال عمر: أتمنىٰ لو أنها مملوءة رجالاً مثل أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وسالم مولىٰ أبي حذيفة، وحذيفة بن اليمان[1].

هذا الأثر الكريم يشير إلىٰ حجم المعاناة التي كان يعانيها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ وهو يجهد نفسه، ويدأب وقته، ويصل ليله بنهاره من أجل تحقيق طموحه وأهدافه، فقد كانت له فكرته التعليمية وفكرته الاقتصادية وفكرته الجهادية وفكرته الاجتماعية، والتي سعىٰ إلىٰ ترجمتها عمليـًا في أرض الواقع؛ لكنه لم يزل بحاجة إلىٰ المزيد من (الرجال)..؛ الرجال الذين يحققون الهدف، ويصلون إلىٰ الطموح رغم المعاناة والآلام، ورغم المصاعب والعقبات.

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٣/ ٢٥٢ كتاب معرفة الصحابة، باب ذكر مناقب سالم مولىٰ أبي حذيفة ﷺ ح٥٠٠٥.

عزيمة جادة

أول وصف يمكن به وصف هؤلاء (الرجال) الذين تمنىٰ عمر بن الخطاب امتلاء الدار منهم: أنهم أصحاب عزيمة، ملتزمون بجادة الطريق، لا يحيدون عنها، ولو طال بهم الزمن، تتجه بوصلتهم نحو معالي الأمور وأفضلها وخيرها، ولا يرون في الرُّخص والمباحات إلا استثناء يقدَّر بقدره، فضلاً عن أنهما لا يجوز أنْ تشغلاهم عن الأصل والقاعدة: العزائم.

في عرضه لمسائل العزائم والرخص، وحين أتىٰ علىٰ إطلاقات الرخص ومعانيها؛ ذكر العلامة الشاطبي - رحمه الله تعالىٰ - منها هذا المعنىٰ: (ما كان من المشروعات توسعة علىٰ العباد مطلقـًا، وما هو راجعٌ إلىٰ نَيل حظوظهم وقضاء أوطارهم)، وذلك مبنيٌ علىٰ أنَّ العزيمة هي ما ورد في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. فالعزيمة هنا هي (امتثال الأوامر واجتناب النواهي علىٰ الإطلاق والعموم، كانت الأوامر وجوبـًا أو ندبـًا، والنواهي كراهة أو تحريمـًا، وترك كل ما يُشغِل عن ذلك من المباحات، فضلاً عن غيرها. فيدخل في الرخصة علىٰ هذا الوجه كل ما كان تخفيفـًا وتوسعة علىٰ المكلف؛ فالعزائم حق الله علىٰ العباد، والرخص حظ العباد من لطف الله؛ فتشترك المباحات مع الرخص علىٰ هذا الترتيب).

ثمَّ بين – رحمه الله تعالىٰ – أن هذا المعنىٰ هو النموذج في تربية النفوس، فقال: (وهذا الوجه يعتبره الأولياء من أصحاب الأحوال، ويعتبره أيضًا غيرهم ممن رقي عن الأحوال، وعليه يربون التلاميذ، ألا ترىٰ أنَّ مِن مذاهبهم الأخذ بعزائم العلم، واجتناب الرخص جملة، حتىٰ آل بهم الحال أنْ عدُّوا أصلَ الحاجيات كلها أو جلها من الرخص؛ وهو ما يرجع إلىٰ حظ العبد منها)[1]. فالشاطبي يذكر أنَّ التربية علىٰ التزام العزائم هو المقرر لدىٰ أهل التربية الأوائل.

وقد تحدث القرآن عن مشاهد من عزيمة الرجال في تعبدهم وتألههم واهتمامهم بذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور:٣٦-٣٧]. قال ابن كثير رحمه الله: (فقوله: رجالٌ فيه إشعارٌ بهممهم السامية ونياتهم وعزائمهم العالية، التي بها صاروا عماراً للمساجد، التي هي بيوت الله في أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه)[2]. وفي موضع آخر قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة:١٥-١٦].

---

(١) الموافقات ١/ ٤٧٢ وما بعدها، بتصرف.

(٢) التفسير ٦/ ٦٧.

ولأهمية هذا المعنىٰ في تربية رجال العزائم جاء الأمر الرباني بفرض قيام الليل فترة من الزمن، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ١ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ وَرَتِّلِ ٱلۡقُرۡءَانَ تَرۡتِيلًا ٤ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ٥ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـٔٗا وَأَقۡوَمُ قِيلًا﴾ [المزَّمل:١-٦]، فكانت نفوس المؤمنين بعدها أقوىٰ عزيمة وأمضاها.

يـــا رجـــالَ الــلــيــل جِــدُّوا
رُبَّ صــــوتٍ لا يُـــــرَدُّ
لا يقــوم الليــــــلَ إلا
مَــنْ لـــــه عـــزمٌ وجِـــدُّ

في حقيقة الأمر أنَّ تجافي جنوبهم عن المضاجع تعبير عن شعورٍ داخلي تجاه كل ما من شأنه أنْ يقعد بهم عن الجادة، ويعوقهم عن المعالي، شعور القلق، أو قل: إنهم متجافون عن العلائق ذات الحُسن والجمال، ولذلك لا تلهيهم التجارة والبيع عن ذكر الله، ولا يرضخون لوطأة الفراش الوثير فتفوتهم الفضائل، ولا تشغلهم المباحات عن العزائم ومعالي الأمور.

ولن يُصلح آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، من ذلك: طليعة من الرجال تتجافىٰ جنوبهم بل وقلوبهم عن علائق الدنيا، سباقون إلىٰ معالي الأمور، ملتزمون بما يحبه الله تعالىٰ ويرضاه؛ ولو كان فيه مشقة عليهم، ولو كان ذلك علىٰ حساب محبوباتهم مما أباح الله تعالىٰ.

هؤلاء هم الأقوياء الذين أثنىٰ عليهم النبي ﷺ في قوله: «المؤمن القوي خيرٌ وأحبُ إلىٰ الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير. احرص علىٰ ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز»[1]. وقد شرح النووي - رحمه الله تعالىٰ - القوة هنا، فقال: (عزيمة النفس، والقريحة في أمور الآخرة، فيكون صاحب هذا الوصف أكثر إقداماً علىٰ العدو في الجهاد، وأسرع خروجاً إليه وذهاباً في طلبه، وأشد عزيمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر علىٰ الأذىٰ في كل ذلك، واحتمال المشاق في ذات الله تعالىٰ، وأرغب في الصلاة والصوم والأذكار وسائر العبادات، وأنشط طلباً لها ومحافظة عليها، ونحو ذلك)[2].

وجدانٌ متوقِّد

وثاني وصف لهؤلاء الرجال هو ذلك الوجدان المتوقد، وتلك المشاعر الملتهبة، حرقةً علىٰ دين الله تعالىٰ، واهتماماً بدعوته، وذلك الوجدان لا يقبع إلا في نفسِ مَنْ آمن بدعوته ورسالته، وجعلهما محور حياته، بهما يصبح ويمسي، وعليهما ينام ويستيقظ، فإذا أمسكَتْ دعوتُه بتلابيب قلبه فإنه حينها يحمل ذلك الوجدان العظيم.

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢٠٥٢ كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز، .... ح٢٦٦٤.

(٢) شرح النووي ١٦/ ٤٣١.

فهو يشعر بالخطر علىٰ دعوته حين يتراخىٰ في القيام بواجباتها، فتراه دائم الفكرة فيها، تعرِض له في كل شأنٍ من حياته، قال أبو شامة: (وبلغني من شدة اهتمام نور الدين رحمه الله بأمر المسلمين حين نزل الفرنج علىٰ دمياط أنه قُرئ عليه جزءٌ من حديثٍ كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديثٌ مسلسلٌ بالتبسم، فطلب منه بعضُ طلبة الحديث أنْ يبتسم لتتم السلسلة علىٰ ما عُرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك، وقال: إني لأستحي من الله تعالىٰ أن يراني مبتسماً والمسلمون محاصرون بالفرنج)[1].

وهو يملك زمام وجدانه، فلا يجزع عند حلول المحن فيتوارىٰ عن الصف، ولا تخور قواه عند سقوط الرايات فيفضِّل الانسحاب، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٢-٢٣]، قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (أيْ هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب. وما زادهم ذلك الحال والضيق والشدة إلا إيمانا بالله، وتسليماً، أي: انقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله)[2].

---

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ٢/ ١٤٣.
(٢) التفسير ٦/ ٣٩٢.

وهو قوي النفس أمام غرائزه فلا يقدمها علىٰ دعوته، قعد أبو خيثمة ﷺ عن الخروج مع رسول الله ﷺ إلىٰ تبوك، فدخل علىٰ امرأتين له في يومٍ حار، فوجدهما في عريشين لهما في حائطه، قد رشَّت كلُ واحدة منهما عريشها، وبرَّدتْ له ماءً، وهيأت له طعامًا؛ فقال: (سبحان الله! رسول الله ﷺ قد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر في الضَحِّ والريح والحر، يحمل سلاحه علىٰ عنقه وأبو خيثمة في ظِلالٍ باردة وطعامٍ مهيأ وامرأتين حسناوين! ما هذا بالنَّصف، والله لا أدخل عريش واحدةٍ منكما ولا أكلمكما حتىٰ ألحق برسول الله ﷺ). فخرج حتىٰ لحق برسول الله ﷺ بتبوك، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له[1]. إنَّ الرجل حق الرجولة من يستطيع التغلب علىٰ غرائزه فيؤجل شهواته إلىٰ ما بعد واجباته، ولا يستسلم للراحة إلا بعد أخذ حظه من النصب والتعب.

بَصُرتَ بالراحة الكبرىٰ فلمْ ترَها

تُنـالُ إلا علىٰ جسرٍ من التعب

ولا سبيل إلىٰ وجود هؤلاء الرجال إلا **بتربية طليعة منهم بتهذيب** غرائزهم، وغرس همِّ الدعوة فيهم، وتنمية حس المسؤولية في نفوسهم.

---

(١) انظر: الطبقات لابن سعد ٤/ ٣٧١.

بصيرة نافذة

وثالث وصف لهؤلاء الرجال هو وعيهم الناضج، وتفكيرهم السديد، فلديهم من البصيرة الشرعية ما تجعلهم قادرين علىٰ تكييف الأحوال والمسائل والنوازل تكييفاً شرعياً، بفضل ما تعلموه من المسائل والأبواب، وما تمرسوا عليه من تخريج الفروع علىٰ الأصول، وضبط القواعد والضوابط، وفهم المقاصد الشرعية..؛ البصيرة التي أفضت بحذيفة بن اليمان ﷺ أنْ يقدم نصيحته إلىٰ أمير المؤمنين عثمان بن عفان ﷺ بعمل ما يلزم حيال اختلاف القراء في ثغور الجهاد، قال أنس ﷺ: قدم حذيفة بن اليمان علىٰ عثمان؛ وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وآذربيجان مع أهل العراق، فأفزعَ حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة، قبل أنْ يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارىٰ، فأرسل عثمان إلىٰ حفصة: أنْ أرسلي إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك. فأرسلتْ بها حفصةُ إلىٰ عثمان،... إلىٰ آخر قصة الجمع المعروفة[1].

ولديهم من البصيرة بالواقع، ومعرفة ما يجري حولهم ما يدركون به كنهه وأسراره، فليسوا دراويش لا يفقهون شيئاً مما يدور حولهم،

---

(١) أخرجها البخاري ٣/ ٣٣٨ كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن ح٤٩٨٧.

ولا ببغاوات لا يدرون ما يقولون، ولا يدرون ما يسمعون، وليسوا ممن يتأثر بالشاشات والدعايات، عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ بعث معاذاً إلىٰ اليمن، فقال له: «إنك تأتي قومـًا أهل كتاب، فادعهم إلىٰ شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإنْ هم أطاعوا لذلك فأعلِمهم أنَّ الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإنْ هم أطاعوا لذلك فأعلِمهم أن الله افترض عليهم صدقة أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وتُردُّ علىٰ فقرائهم، فإنْ هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائمَ أموالهم، واتقِ دعوة المظلوم، فإنها ليس بينها وبين الله حجاب»[1].

ولديهم من البصيرة بمخططات الأعداء من المستعمرين وأذنابهم وأبواقهم، ما يجعلهم علىٰ بينة من الأمر وشعورٍ دائم بالخطر إنْ هم تهاونوا في القيام بواجبهم تجاه ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِتَسۡتَبِينَ سَبِيلُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأنعام:٥٥].

ثم هم أثناء ذلك وبعده يُعملون آلة التفكير إعمالاً جيداً، فيخرجون بأفضل النتائج، وأفضل الأفكار، وأصح الاستنتاجات، وأصدق التنبؤات.

---

(١) أخرجه الترمذي ٣/ ٢١ كتاب الزكاة، باب ما جاء في كراهية أخذ خيار المال في الصدقة ح٦٢٥.

يقول البشير الإبراهيمي رحمه الله تعالىٰ: (إننا لا نكون مسلمين حقًّا، ولا نستطيع أن ندفع هذه الجيوش المغيرة علينا وعلىٰ ديننا، تارة باسم العلم، وتارة باسم الخير والإحسان، وأخرىٰ باسم الرحمة بالإنسان، إلا إذا علمنا ما يراد بنا، وفقهنا الغايات لهذه الغارات، وتحدَّيناها بجميع قوانا المعنوية والمادية، وحشدها في ميدان واحد، هو ميدان الدفاع عن حياتنا الروحية والمادية، ولا يتمُّ لهذا الشأن تمام إلا إذا أقمنا الدعوة إلىٰ الله، وإلىٰ دينه الإسلام، علىٰ أساس قوي من أحجار العالم الرباني، والخطيب الذي يتكلم بقلبه لا بلسانه، والكاتب الذي يكتب بقلمه ما يمليه عقله، والغني المستهين بماله في سبيل دينه، ثم وجهنا هذه الدعوة إلىٰ القريب قبل الغريب، إلىٰ المسلم الضال قبل الأجنبي، فإذا فعلت الدعوة فعلها في نفوس المسلمين، وأرجعتهم إلىٰ ربهم، فاتصلوا به، فتمسكوا بكتابه وهدي نبيه، وتمجدوا بتاريخه وأمجاده وفضائله ولسانه، كنا قلَّدناهم سلاحًا لا يفلُّ، وأسبغنا عليهم حصانة روحية، لا تؤثر عليها هذه الدعايات المضللة، وحصانة أخرىٰ مادية ملازمة لها، لا تهزمها الجموع المجمعة، ولو كان بعضها لبعض ظهيراً)[1].

لقد بات مُلحًّا أنْ يكون من مخرجاتنا التربوية: المعلم المثقف، والداعية المثقف، والعالِم المثقف.

---

(١) آثار الإمام ٤/ ٢٨٦.

إقدامٌ جريء

ورابع وصف لهؤلاء الرجال أنهم طليعة من الشجعان، تربوا علىٰ روح المغامرة والإقدام، لا يحبون التردد، لا يخافون من تقحم الأهوال والمخاطر، ولا يمنعهم الخوف من الإخفاق أنْ يغامروا ويُقدموا.

لقد تحدث القرآن عن معاذير الخائفين علىٰ دنياهم من الإقدام في عدد من السور كآل عمران والتوبة والأحزاب والفتح، وعقَّب عليها بالتوبيخ الشديد، إذ ليس من صفات المؤمنين الصادقين أنْ يخافوا علىٰ دنياهم من تحملهم لمسؤولية دينهم، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران:١٦٧].

إنَّ الخائفين والمترددين والمتعطشةَ قلوبهم لزخرف الدنيا لن يقدموا أرواحهم وأموالهم رخيصة في سبيل دعوتهم وإيمانهم، بل سيظلون منشغلين بإعمار دنياهم؛ وإنْ قالوا: إننا رجال. حكىٰ الله عن قومٍ قولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا﴾ [الفتح:١١]. وإلىٰ الله أشكو حالي وحال بعض إخوتي.

إنَّ الأمة اليوم بحاجة إلىٰ تربية تخرج الشجعان والمقاديم، الذين يبادرون ويتقدمون الصفوف في الدعوة إلىٰ الله وحمل رسالة الإسلام.

والإقدام والمغامرة لا تعنيان المجازفة، وإنما هما المضبوطان بدراسة ميدانية ومشورة جماعية، قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤].

فإذا أردنا تربية الرجال، الذين كان عمر بن الخطاب ﷺ يتمنىٰ توافرهم، ممن لديهم العزائم الجادة، والوجدان المتوقد، والبصائر النافذة، والإقدام الجريء؛ فعلينا أنْ نرسم الأهداف الصحيحة لهذا المشروع العظيم، وأنْ نصنع المحتوىٰ المناسب لهذه الأهداف، وأنْ نهيئ المحضن المحفز للنجاح في مشروع عملاقٍ كهذا؛ يقوم عليه مربون مدركون لحقيقة ما يعملون، وإنها لمهمة عظيمة تضطلع بها التربية الإسلامية اليوم، إذْ يقوم علىٰ أكتافِ هؤلاء الرجال القادمين صناعةُ مستقبلٍ مشرق لهذا الدين، قال الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف:١٤]. وإنَّ رجالاً عظماء لا يمكن لهم أنْ يتخرجوا إلا في محاضن تربوية عظيمة، ولو كانت قليلة.

* * *

المحكمات التربوية

تولىٰ عمر بن عبدالعزيز – رحمه الله تعالىٰ – الخلافة وقد ساءت أمورٌ كثيرة، وماجت فتن وتبدلت أحوال سنية. ومن ذلك: سفك الدماء المعصومة، وتأخير الصلاة عن وقتها بصفة رسمية، والعبث بالمال العام، وكثرة المظالم. ولم يكن الأمر بهذه السهولة، فقد مضىٰ علىٰ ذلك زمن، مما جعل الخليفة يقول: (إني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي؛ حتىٰ حسبوه ديناً لا يرون الحقَّ غيره)[1].

كانت مهمة التجديد دقيقة، وذات نفَس طويل، وكان الدور التربوي أحد مسارات التجديد الذي انتهجه عمر بن عبدالعزيز، وهو تربية عموم الناس علىٰ الدين الصحيح السليم كما جاء به محمد ﷺ.

لم يكن عمر بن عبد العزيز وهو يسير في هذا الاتجاه وحده، بل كان معه من يعينه علىٰ الإصلاح والتجديد، وعلىٰ رأسهم: ابنه عبد الملك ومولاه مزاحم، وكانت بيده السلطة والأمر والنهي، فما فجأه إلا ابنه عبد الملك ينكر عليه تباطؤه وتأخيره حملَ الناس علىٰ بعض

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم، ص٣٧.

الحق، فقال له: إني لأراك يا أبتاه قد أخَّرتَ أموراً كثيرة كنتُ أحسبك لو وليت ساعة من النهار عجلتها، ولوددتُ أنك قد فعلتَ ذلك؛ ولو فارت بي وبك القدور. فقال له عمر: (أيْ بني! إنك علىٰ حُسن قسم الله لك، وفيك بعض رأي أهل الحداثة، والله ما أستطيع أنْ أُخرِج لهم شيئًا من الدين إلا ومعه طرف من الدنيا أستلين به قلوبهم؛ خوفًا أن ينخرق عليَّ منهم ما لا طاقة لي به)[1]. لقد وصل الانحراف إلىٰ درجة الرسوخ مما جعل عمر بن عبد العزيز يرتب أولويات الإصلاح، ويجعل له درجات، وإذا كان ابنه عبد الملك علىٰ درجة من تحمل التكاليف الشرعية، وعلىٰ قدر من الاهتداء؛ فإنَّ عموم الناس ليسوا كذلك، فقبلَ منهم الخليفة التدرج في الإصلاح.

وهذا القبول لا يعني الرضا المطلق، وإنما يعني أنْ يكون مؤقتًا، كما يعني أن الناس في تقبل الدين وتكاليفه مشارب وأنواع، قال الله تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزُّمَر:٢١]، قال ابن عاشور: (إنزال الماء من السماء تشبيهٌ لإنزال القرآن لإحياء القلوب، وإسلاك الماء ينابيع في الأرض تشبيه لتبليغ القرآن للناس، وإخراج الزرع المختلف الألوان تشبيه لحال اختلاف الناس من طيِّب وغيره، ونافع وضار،

(١) المصدر السابق، ص ٥١.

وهياج الزرع تشبيه لتكاثر المؤمنين بين المشركين...، وقريب من تمثيل هذه الآية ما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدىٰ والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضـًا فكان منها نقيَّة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرىٰ إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسـًا ولم يقبل هدىٰ الله الذي أُرسلت به»[1].

وإذا عرفنا أنَّ أحد أهداف التربية الإسلامية صناعة الرجال الأفذاذ من أصحاب العزائم والإقدام، فإنَّ كثيرين من الناس لن يكونوا كذلك، كما قال النبي ﷺ: «إنما الناس كالإبل المئة لا تكاد تجد فيها راحلة»[2]. وقد أدرج البخاري - رحمه الله تعالىٰ - هذا الحديث في باب (رفع الأمانة) ليشير إلىٰ مسألة: الندرة والقلة، وهذا متحقق في تربية أصحاب العزائم والرجال الأفذاذ، وهذا يقتضي ألا يُكْتفَىٰ بهذا المسار في صياغة الإستراتيجيات التربوية، وإنما علىٰ المؤسسة التربوية أنْ تعتني بالجمهور العام وبمختلف الشرائح، ممن تستهدفهم

(١) تفسير التحرير والتنوير ٢٣/ ٣٧٦. والحديث أخرجه البخاري ١/ ٤٥ كتاب العلم، باب فضل من علِم وعلَّم، ح(٧٩).
(٢) أخرجه البخاري ٤/ ١٩١ كتاب الرقاق، باب رفع الأمانة ح٦٤٩٨.

التربية الإسلامية، بأهداف تربوية دون أهداف تربية العزائم، إذ تمثل تربية العزائم درجة واحدة من درجات التربية؛ رغم علو شأنها. هذا هو العدل، وهو الميزان القسط في التربية الإسلامية.

وإذا قامت المؤسسة التربوية بتوجيه كل طاقاتها نحو تربية العزائم وصناعة الأفذاذ فمن لعموم الناس وجماهير الأمة؟ أليست التربية الإسلامية تستهدف الإنسان المسلم؛ أيـًا كانت همته ومستوىٰ تدينه وشخصيته؟ وبالتالي فإنه يتوجب صياغة مسارات متعددة في التربية الإسلامية تستوعب كافة الأنواع والشرائح والدرجات، وتستخدم مختلف التقنيات والوسائل، وتفقه الطريق الذي تسير فيه.

وإنَّ أجيال الأمة اليوم تعرضت لكثير من أمواج الفتن ورياح التغريب، وإنَّ انتشالها من ذينك يستغرق وقتـًا وجهداً، وإدارة ذكية تتعامل مع هذا الواقع بما يلائمه ويناسبه، بعيدة عن الفكرة الواحدة والهدف الأوحد، كما قال عمر بن عبد العزيز: (إني أعالج أمراً لا يعين عليه إلا الله، قد فني عليه الكبير، وكبر عليه الصغير، وفصح عليه الأعجمي، وهاجر عليه الأعرابي؛ حتىٰ حسبوه دينـًا).

يوجد في أجيال الأمة: الغريق، ومن أشرف علىٰ الهلاك، ومن نأىٰ به الموج بعيداً، ومن تبلل بالماء، ومن ألقت الريح عليه الأوساخ والغبار، ومنهم من سلم من تلك الرياح والأمواج، ومن أسهم في صدها وسلامة الناس من تبعاتها...، إنهم ليسوا علىٰ مستوىٰ واحد،

ولا علىٰ مسار واحد، فلذلك توجب تنويع مسارات التربية ومستوياتها ودرجاتها.

هنَّ أم الكتاب

قسَّم القرآنُ الكريمُ ما جاء فيه من الآيات والتشريع إلىٰ قسمين: محكم، ومتشابه، فقال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۘ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران:٧].

المحكم هو اللفظ الذي دل علىٰ معناه دلالة واضحة قطعية لا تحتمل تأويلاً ولا تخصيصاً ولا نسخاً، وما عداه فهو مشتبه[١]. فيدخل في المحكمات: قواعد الدين، وأمهات الأحكام وقواعدها، قال الشاطبي رحمه الله تعالىٰ: (أم الكتاب يعم ما هو من الأصول الاعتقادية أو العملية)[٢]. والشاطبي في هذا يثبت أنَّ أمهات الأحكام الفقهية، والتي يسميها الأصول العملية تأخذ حكم الأصول الاعتقادية

---

(١) انظر كتاب المحكمات في الشريعة الإسلامية وأثرها في وحدة الأمة وحفظ المجتمع، د. عابد السفياني ص٢٠، ومجمل المقالة وعدد من منقولاتها مستفاد في الأصل من هذا الكتاب البديع.

(٢) الموافقات ٥/ ١٤٥.

في وجوب الإيمان بها والالتزام بمقتضياتها، فيقول: (فإنَّ المخالفَ في أصلٍ من أصول الشريعة العملية لا يَقْصُر عن المخالف في أصل من الأصول الاعتقادية في هدم القواعد الشرعية)[1]. ومما تدل الآية عليه أنه ينبغي عند الاشتباه الرجوع إلىٰ المحكم الواضح، وإعماله في المتشابه، قال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (يخبر تعالىٰ أنَّ في القرآن آياتٍ محكماتٍ هُنَّ أم الكتاب، أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها علىٰ أحد من الناس، ومنه آياتٌ أُخر فيها اشتباه في الدلالة علىٰ كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردَّ ما اشتبه إلىٰ الواضح منه، وحكَّم محكمه علىٰ متشابهه عنده فقد اهتدىٰ، ومن عكس انعكس، ولهذا قال تعالىٰ: هن أم الكتاب، أي أصله الذي يرجع إليه عند الاشتباه)[2].

وهذه المحكمات هي علم العامة الذي عرَّفَه الشافعي - رحمه الله تعالىٰ - بقوله: (لا يسعُ بالغًا غيرَ مغلوب علىٰ عقله جهلُه. مثل الصلوات الخمس، وأن لله علىٰ الناس صوم شهر رمضان، وحج البيت إذا استطاعوه، وزكاة في أموالهم، وأنه حرم عليهم الزنا والقتل والسرقة والخمر، وما كان في معنىٰ هذا، مما كلف العباد أن يعقلوه ويعملوه ويعطوه من أنفسهم وأموالهم، وأن يكفوا عنه ما حرم عليهم منه.

---

(١) المصدر السابق ٥/ ١٤٧.

(٢) تفسير ابن كثير ٢/ ٦.

وهذا الصنف كله من العلم موجود نصاً في كتاب الله، وموجود عاماً عند أهل الإسلام، ينقله عوامهم عمَّن مضىٰ من عوامهم، يحكونه عن رسول الله، ولا يتنازعون في حكايته ولا وجوبه عليهم. وهذا العلم العام الذي لا يمكن فيه الغلط من الخبر، ولا التأويل، ولا يجوز فيه التنازع)[1].

مسار المحكمات في التربية

هذا الصنف من علم الشريعة، أعني المحكمات، أو ما أسماه الشافعي بالعلم العام، هو ما ينبغي أنْ يكون مساراً هاماً من مسارات التربية الإسلامية اليوم، يستهدف به عموم الشباب من الجنسين، فيحفظ فيهم - بإذن الله تعالىٰ - محكمات الشريعة وأصول الأحكام الاعتقادية والعملية، وأمهات الأحكام وقواعد الدين، فإذا التبست المسائل، واختلطت المناهج؛ احتكموا إلىٰ هذي المحكمات، وفزعوا إلىٰ القواعد والأصول، فاعتصموا بها، ولاذوا بحماها، وثبتوا عليها، ودافعوا عنها، ودعوا الناس إليها.

وهذا المسار التربوي يستوعب القادة والأعيان والمعلمين والمهندسين والعسكريين والأطباء والماليين ورجال الأعمال وسائر المتخصصين في العلوم والفنون المتنوعة، إذ يجب علىٰ الجميع

---

(١) الرسالة، ص٣٥٧.

المحافظة علىٰ (أم الكتاب) اعتقاداً وعملاً ودعوة ودفاعـًا. ولا يلزم من هذا المسار أنْ يخرِّج مربين وأصحاب همٍّ دعوي، إذ هو يستهدف هذه المحكمات بالحفاظ عليها، وتنميتها بالدرجة الأولىٰ والرئيسية، وما بعد ذلك فهو نافلة.

كما أنَّ هذا المسار لا يتخذ شكلاً واحداً، ولا يتمثل في قالب واحد، وإنما يتشكل بحسب التفاصيل النظرية والعملية لأي جهد يصب في هذا الاتجاه، وعليه فإنه لا حدود لأشكال البرامج التربوية المقدمة في هذا المسار، إلا الحدود الشرعية.

وهذا المسار التربوي لا يهتم كثيراً بتفاصيل الشريعة المتعلقة بدقائق النوافل والمستحبات، ولا ما اختلف في وجوبه، أو كيفيته، ولا يحفل بالنهي عن تفاصيل المكروهات وما اختلف في تحريمه، وإنما يصب تركيزه علىٰ تربية النفوس علىٰ تعظيم ما أحكم الله تعالىٰ وجوبه كالتوحيد، وأركان الإيمان، وأركان الإسلام، وصلة الأرحام، والوفاء والصدق والأمانة والعدل، وتعظيم ما أحكم تحريمه كالزنا والخمر، وعقوق الوالدين، وقتل الأنفس المعصومة، والربا والسرقة والخيانة والغدر، وإنما هذه أمثلة، ومن أمثلتها الآيات التي أشار إليها ابن عباس ﷺ أنها من المحكمات فقال: (المحكمات في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام:١٥١]، والآيتان بعدها، وقوله تعالىٰ:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]؛ إلىٰ ثلاث آيات بعدها)[١].

وربما احتاج ربانو مسار المحكمات إلىٰ نصب ميزان المفاضلة الفقهي، فتركوا مأموراً به لأجل مأمورٍ به أهم منه، وغضوا الطرف عن محظور لاهتمامهم بمكافحة محظور أشد منه، وابتعدوا عن مشتبهات لأجل إحكام المحكمات.

إنَّ جيل اليوم يواجه طوفاناً من العمل الدؤوب لتذويب محكمات الدين والتقليل من شأنها في النفوس، والدعوة إلىٰ أضدادها كالدعوة إلىٰ الإباحية والكفر بالله تعالىٰ والإلحاد، وتفكيك الأسرة وغيرها، وما لم ننشغل بإحكام المحكمات في نفوسهم؛ فإننا نخشىٰ أنْ يتحول المجتمع إلىٰ ما لا يسر ولا يرضي الله تعالىٰ.

وإنَّ الدعوة إلىٰ خط مسار المحكمات في التربية الإسلامية لا يعني التقليل من مسار تربية العزائم، وإنما يقتضي الموازنة بينهما بحيث يسيران في خطين متوازيين، وسيكون كل مسارٍ ردءاً وسنداً للمسار الآخر، يمده بالنجاح، ويدرُّ عليه الكوادر.

وإنَّ الدعوة إلىٰ خط مسار المحكمات في التربية الإسلامية يقتضي صياغة تأصيلية لمحكمات الشريعة، ورسماً لمنهج المحكمات

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٧.

التربوي، وإبداعاً للقوالب والبرامج والتقنيات التي سيتم من خلالها تربية الجيل علىٰ المحكمات، ليس منها القوالب المعتادة والمعروفة والمألوفة.

* * *

الإنتاج بين الميول والاحتياج

قال الفريابي: قال لي سفيان الثوري يومـًا، وقد اجتمع الناس عليه: (يا محمد، ترىٰ هؤلاء ما أكثرهم! ثلث يموتون، وثلث يتركون هذا الذي تسمعونه، ومن الثلث الآخر ما أقلَّ من يَنجُب!)[1].

لقد كانت عواصم الإسلام زاخرة بمجالس الحديث وحلقاته، إذ كان يمثل الاشتغال بحفظ الحديث وروايته وسماعه وجمعه طفرة علمية في تلك العواصم، لا سيما في بلاد العراق، الأمر الذي نظر له البعض بعين الإعجاب والغبطة، فكانوا يُسرُّون لما يرونه من هذا الإقبال علىٰ سنة النبي ﷺ.

لكن أصحاب النظرة الثاقبة والبصيرة الناقدة لم تكن نظرتهم إلىٰ ذلك سوىٰ كونه ظاهرة مؤقتة، ثم تخفت فيما بعد، ومن هؤلاء أمير المؤمنين في الحديث الإمام سفيان الثوري رحمه الله. ولهذا لما رأىٰ إعجاب بعضهم بهذا التجمهر في سبيل طلب الحديث قال مقولته تلك، وهوَّن من هذه الظاهرة معللاً بمعادلة النمو التعليمي في حينها، ومنوِّهـًا بالنظر في الأمر من زوايا أخرىٰ: الموت، وتسرب الطلاب، وقلة النابغين والنجباء. ومثل هذه المعادلة أو قريب منها تحدث عنها غيره من محدثي عصره! إنها دعوة ثورية إلىٰ عدم الاغترار بالإقبال

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٧٠.

الغفير نحو الأماكن المزدحمة! وإنَّ الدعاية والموجه ينبغي أن تخضعا للنقد الواعي. ولم تكن هذه هي المرة الأولىٰ التي تصيب فيها الحركةَ العلمية ظاهرة الدعاية والموجه، بل حدث ما يشبه ذلك زمن عمر ﷺ، قال ابن عباس ﷺ: (قدم علىٰ عمرَ رجلٌ، فجعل عمر يسأله عن الناس، فقال: يا أمير المؤمنين، قد قرأ القرآن منهم كذا وكذا. فقلت: والله ما أحب أن يسارعوا يومهم هذا في القرآن هذه المسارعة. قال: فزبرني عمر، ثم قال: مه! فانطلقتُ إلىٰ منزلي مكتئبًا حزينًا، فقلت: قد كنتُ نزلتُ من هذا بمنزلة، ولا أراني إلا قد سقطتُ من نفسه، فاضطجعت علىٰ فراشي، حتىٰ عادني نسوة أهلي وما بي وجع، فبينا أنا علىٰ ذلك، قيل لي: أجب أمير المؤمنين. فخرجتُ، فإذا هو قائم علىٰ الباب ينتظرني، فأخذ بيدي، ثم خلا بي، فقال: ما الذي كرهت مما قال الرجل آنفًا؟ قلت: يا أمير المؤمنين، إنْ كنتُ أسأتُ، فإني أستغفر الله وأتوب إليه، وأنزلُ حيث أحببت. قال: لتخبرَنِّي. قلت: متىٰ ما يسارعوا هذه المسارعة يحتقُّوا، ومتىٰ ما يحتقُّوا يختصموا، ومتىٰ ما اختصموا يختلفوا، ومتىٰ ما يختلفوا يقتتلوا. قال: لله أبوك !لقد كنتُ أكتمها الناس حتىٰ جئتَ بها)[1].

ولو سلطنا الضوء علىٰ هذه المعادلة التي سكَّها أمير المؤمنين في الحديث لوجدنا أنه أحال كتلة الإخفاق الغالبة عليها – من حيث الكمِّ

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٣٤٨.

- إلىٰ ثلاثة عناصر: الظروف القاهرة مثل الموت، وانحراف بوصلة الميول الشخصية عن مسار علم الحديث وملكاته ومهاراته مما يفضي بالطلاب إلىٰ تسربهم من حلقاته ومجالسه، وضعف القدرات التحصيلية والمهارية التي تؤدي إلىٰ الإخفاق وعدم النبوغ مع كثرة المذاكرة وبذل الجهد في سبيل التعلُّم.

أما الموت ونحوه من الظروف القاهرة فهي محض قدَر لا نستطيع التحكم في ماجرياته، لقد مات المحدثون، وطلبة العلم، والقادة الشجعان، والفضلاء، والنبلاء..، بل مات الرسل والأنبياء، ولكننا بالتأكيد نستطيع أنْ نقدم بعض التقنيات لمنع الإخفاق الناتج عن انحراف بوصلة الميول الشخصية وضعف القدرات التحصيلية والمهارية، لمنع الهدر الهائل الذي يقع في محاضن التربية وحلقات التعليم: الهدر في الطاقات والأموال والجهود، وللحصول علىٰ نتائج أكثر إيجابية.

فخُّ التكاثر

التقويم ذو المعايير غير الصادقة للاحتياج الميداني والميول الشخصي والقدرات الذاتية هو بداية الإخفاق في المشاريع الكبرىٰ، التقدير الذي تغلب عليه العاطفة، ويسيره العقل الجمعي، ويتأثر بحملات التسويق المقصودة وغير المقصودة، إنه يخفض من قيمة

المعايرة، ويقلل من أهمية الميزان القسط، فتنطلق مشاريع وتبنىٰ لها قصور المديح وبروج الثناء، ثم يفجؤنا تاريخ هذه المشاريع بقلّة الإنتاج والإخفاق في النتائج.

أما حين تكون معايير التقويم علىٰ درجة عالية من المصداقية والموضوعية فإنها تهدي - بإذن الله - إلىٰ ما هو أصوب وأحسن وأفضل، بعيداً عن التقدير العاطفي للأمور، وبعيداً عن سياط العقل الجمعي وحملات التسويق، ولذلك وقف شيخ الإسلام ابن تيمية في وجه التيار العلمي في زمنه، ثم انعطف عنه متخذاً مساراً علمياً آخر؛ كانت الأمة أشد حاجة إليه، ولم يتأثر بسطوة التيار، ولا بضجيج الزحام، فكانت له تواليف وتصانيف مختلفة، جاءت علىٰ غير النسق العام في وقته، قال الحافظ عمر البزار: (ولقد أكثر ﷺ التصنيف في الأصول فضلاً عن غيره من بقية العلوم، فسألته عن سبب ذلك، والتمستُ منه تأليفَ نصٍّ في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء، فقال لي ما معناه: الفروع أمرُها قريب، فإذا قلَّد المسلمُ فيها أحدَ العلماء المقلَّدين جاز له العمل بقوله ما لم يتيقن خطأه، وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلالات والأهواء كالمتفلسفة والباطنية والملاحدة والقائلين بوحدة الوجود والدهرية والقدرية والنصيرية والجهمية والحلولية والمعطلة والمجسمة والمشبهة والراوندية والكلابية والسليمية وغيرهم من أهل البدع

قد تجاذبوا فيها بأَزِمَّة الضلال، وبان لي أنَّ كثيراً منهم إنما قصَدَ إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العلية علىٰ كل دين، وأنَّ جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم، ولهذا قلَّ أنْ سمعتُ أو رأيت مُعرِضـًا عن الكتاب والسنة مقبلاً علىٰ مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار علىٰ غير يقين في دينه واعتقاده.

فلما رأيت الأمر علىٰ ذلك بان لي أنه يجب علىٰ كل من يقدر علىٰ دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم أنْ يبذل جهده ليكشف رذائلهم، ويزيِّف دلائلهم ذبـًا عن الملة الحنيفية والسنة الصحيحة الجلية)[1].

نحن – في مشاريعنا التربوية والدعوية – أشدَّ ما نكون حاجة إلىٰ نصب ميزانِ قسطٍ، صادقِ المعايير، غيرِ متأثر بالضجيج، يساعدنا في تقويم أهدافنا وغاياتنا التربوية والتعليمية حتىٰ لا نقع في فخ التكاثر الملهي عن الحقائق.

وبلا شك سيكون للدراسات الميدانية المتجردة تأثير إيجابي بالغ في معايرة هذا الميزان، من خلال تقديم الحقائق والآراء التي تصف الواقع وتحلله.

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، ص٣٣.

الانطلاق من الذات

انطلق ابن تيمية في بناء رؤيته العلمية الإصلاحية من منطلقين اثنين: حاجة الناس، وقدراته الذاتية. لقد كوَّن منهما خط عملٍ علمي إصلاحي، غير عابئ بسطوة الكثرة الملهية.

كما أنَّ سفيان الثوري أشار إلىٰ أمرين ذاتيين لهما كبير الأثر في قلة الإنتاج: ضعف الميل الذاتي نحو هذا الفن، وضعف القدرات الذاتية لاستيعابه.

مدىٰ انسجام الذات مع البرنامج التربوي هو عقدة الحبل في نجاح الفكرة.

وإنَّ أول ما يجب علينا - ونحن نوجِّه الشباب نحو برامج التربية والدعوة - أنْ نتحقق من تفسير ذواتهم، وتحليل شخصياتهم، وفهم ميولهم، وتحديد قدراتهم، وهذا ما يجيب عن سؤال المربي: مَنْ هم طلابي؟ وستمثل هذه الإجابة نقطة الانطلاق في التوجيه نحو المناسب من البرامج والمشاريع، وبداية الانسجام المفضي إلىٰ النجاح.

وهذه الخطوة ليست من ترف التربية، وليست من ثانويات المطالب التربوية، إنها تحتل الصدارة في قائمة المهام الواجبة علىٰ المربي. في أول لقاء جمع زيد بن ثابت ﷺ بالنبي ﷺ وهو غلام لما

يبلغ الحلم؛ قال له النبي ﷺ: «تعلمْ لي كتاب يهود»[1]، أيْ إنه ﷺ منذ اللقاء الأول بزيد بن ثابت تمكن من معرفة قدراته، فوجهه إلىٰ مشاريع ينسجم معها، ويحقق فيها أعلىٰ درجات النجاح، فتعلم زيد لغة اليهود، وأتقنها في نصف شهر فقط، وكانت الانطلاقة! فتعلم اللغة الفارسية من رسول كسرىٰ في ثمانية عشر يومـًا، وتعلم الحبشية والرومية والقبطية من خُدَّام رسول الله ﷺ[2].

أما ابن مسعود رضي الله عنه فهو كذلك، في أول لقاء يجمعه بالنبي ﷺ يقول له: «إنك غلام معلَّم». قال ابن مسعود عقب روايته هذه: (فأخذت من فِيه سبعين سورة لا ينازعني فيها أحد)[3]. وقوله ﷺ: «معلَّم» يعني: ملهَم للصواب والخير[4]. وحتىٰ ندرك أهمية هذا التوصيف النبوي علينا أنْ نعلم أثر ابن مسعود في حفظ القرآن وتفسيره وفقه أحكامه، إذ تمثل مدرسته عموداً في فقه الأحكام وتفسير القرآن.

وهنا ملاحظة مهمة ينبغي التركيز عليها، ودراستها بعناية، والسعي في ترجمتها عمليـًا في محاضن التربية، وهي أنَّ طريقة النبي ﷺ في تربية أصحابه ليست طريقة سلبية: تَسلِب الطالبَ شخصيتَه وقواه

(١) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٢٨.
(٢) البداية والنهاية ٨/ ٢٨.
(٣) الطبقات الكبرىٰ ٣/ ١٣٩.
(٤) النهاية في غريب الحديث ٣/ ٢٩٢.

وقدراته وعقله؛ فيكون بلا شخصية تميزه عن غيره، أو بلا شخصية تعبِّر عما في ذاته من العناصر المكونة لهذه الشخصية، فهو رقم ضمن الأرقام الكثيرة، ونسخة بين النسخ المرصوصة علىٰ الرف. كلا! بل طريقته ﷺ أنْ يجعل العمل والإنتاج أساسًا ومنطلقًا لتربية الفرد علىٰ الإسلام وقيمه وأحكامه ومفاهيمه، فالفرد ليس مُتلقيًا فحسب، بل هو عضو في مجموعة عمل، وهو مسؤول عن تسخير قدراته في خدمة الإسلام، والجميع يقدمون جهوداً، متنوعة لكنها مما تنسجم فيها ذواتهم فينتجون ويبدعون، وفي ذات الوقت يتربون!

والمقصود أنَّ الانطلاق في بناء البرامج والمشاريع التربوية لا تحدده رغبات مجالس الإدارات فحسب، وإنما تحدده شخصيات الشباب واتجاهاتهم وميولهم. وهذا هو الذي يصنع رجالاً يستطيعون أنْ يبنوا المستقبل بما يحملونه من منهج الإسلام. وهذا سيجعل مجالات العمل التربوي متنوعة ومتكاثرة، قادرة علىٰ استيعاب الكثير من الشباب، بعد أنْ أصبحت الشكوىٰ تتزايد من تسربهم من محاضن التربية، وتأمل قول سفيان الثوري مرة أخرىٰ.

وذلك يتطلب أشكالاً وألوانًا جديدة من البرامج والمشاريع والبيئات؛ تولدها الأفكار الإبداعية.

* * *

إكسير التربية

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (العارف لا يأمر الناس بترك الدنيا، فإنهم لا يقدرون علىٰ تركها، ولكن يأمرهم بترك الذنوب مع إقامتهم علىٰ دنياهم، فترك الدنيا فضيلة، وترك الذنوب فريضة، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم الفريضة؟!

فإن صعُب عليهم ترك الذنوب؛ فاجتهدْ أن تحبب الله إليهم بذكر آلائه وإنعامه وإحسانه وصفات كماله ونعوت جلاله، فإن القلوب مفطورة علىٰ محبته، فإذا تعلقت بحبه هانَ عليها ترك الذنوب والاستقلال منها والإصرار عليها)[1].

ترك الذنوب والمعاصي من المقاصد الكبرىٰ للتربية الإسلامية، قال الله تعالىٰ: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾ [الأنعام:١٢٠]. قال مجاهد: (معصيته في السر والعلانية)[2]. فالنهي جاء عن جميع المعاصي، وذلك أنَّ بفشوها يهلك الناس، وتفسد الحياة، وتستحق المجتمعات عقوبة الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ

(١) الفوائد، ص٢٤٧.
(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٣٢٣.

وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴾ [الإسراء:١٦-١٧]. وقال تعالىٰ: ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [الروم:٤١]. وقد قصَّ الله تعالىٰ في كتابه أخباراً للذين استحقوا العقوبة بسبب ارتكابهم الإثم والخطيئة.

وحين عرَّف جعفر بن أبي طالب دعوة النبي ﷺ في مجلس النجاشي؛ كان مما قال: (كنا قومًا أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا علىٰ ذلك، حتىٰ بعث الله إلينا رسولاً منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلىٰ الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمَرنا بصِدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا،....)[1].

ومن أسهل الطرق الموصلة إلىٰ هذا المقصد التربوي الكبير: تحبيب الله تعالىٰ إلىٰ الناس، كما أشار إلىٰ ذلك ابن القيم رحمه الله.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ٣٣٦.

وابن القيم يعرض ملحظاً تربوياً يتكرر في هذا السياق، ويتمثل هذا الملحظ في دعوة الناس إلىٰ ترك الدنيا في حين لا يزالون مقيمين علىٰ الذنوب والمعاصي، إذ لا يمثِّل ترك الدنيا بهذا الإطلاق مقصداً للتربية الإسلامية، بخلاف ترك الذنوب والمعاصي. يقول رحمه الله: (فترك الدنيا فضيلة وترك الذنوب فريضة، فكيف يؤمر بالفضيلة من لم يقم بالفريضة؟!)، وهو بهذا يرتب الأولويات الدعوية في هذا السياق.

ويعلِّل - رحمه الله تعالىٰ - هذا الملحظ تربوياً، إذ يقول: (العارف يدعو الناس إلىٰ الله من دنياهم، فتسهُل عليهم الإجابة، والزاهد يدعوهم إلىٰ الله بترك الدنيا فتشقُّ عليهم الإجابة، فإنَّ الفطام عن الثدي الذي ما عقلَ الإنسانُ نفسَهُ إلا وهو يرتضع منه شديد، ولكن تخيَّرْ من المرضعات أزكاهن وأفضلهن...)، ونقل قولَ يحيىٰ بن معاذ: (طلبُ العاقل للدنيا خيرٌ من ترك الجاهل لها)[1].

وكأنَّ المسألة تتعلق بذات الإنسان أكثر من تعلقها بما هو خارجٌ عنه من الدنيا، إذ ليست كل شؤون الدنيا مذمومة، فإنَّ فيها ما لا تقوم الحياة إلا به، بل فيها ما لا يقوم الدين إلا به، وعلىٰ العاقل أنْ يأخذ من الدنيا ما تقوم به حياته ودينه، فيحولها من باب الذم إلىٰ باب المدح، وتصير بذلك قربة لله، وعبادة له سبحانه. وهذا الاختيار من الإنسان هو ما يميز جودة تربيته الإسلامية وصفاء تصوراته وسلامة قلبه.

---

(١) الفوائد، ص٢٤٧.

مفعول عبودية المحبة

حب الله تعالىٰ من أعظم مقامات العبودية، بل هو الأصل فيها، كما قال ابن القيم في موطن آخر: (أصل العبادة محبة الله، بل إفراده بالمحبة، وأن يكون الحب كله لله، فلا يحب معه سواه، وإنما يحب لأجله وفيه)[1]. وإنما يجد الإنسان طعم الإيمان وحلاوته ولذته بها، ثبت هذا من حديث أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «ثلاثٌ من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: أنْ يكون اللهُ ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأنْ يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار»[2].

وسأقصر الحديث في هذه الفقرة علىٰ مفعول هذه العبودية في كيان العبد، وأثرها في استقامته وصلاحه وإيمانه، فمن ذلك: أنَّ حب الله تعالىٰ يورث المؤمن إرادة قلبية تقدم محابَّ الله تعالىٰ علىٰ محابِّ النفس، قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (فإذا استقرت المحبة في القلب استدعت من الـمُحب إيثار محبوبه علىٰ غيره، وهذا الإيثار علامة ثبوتها وصحتها)[3]. فكلما قويت محبة الله صِدقًا في قلب المؤمن بعثته إلىٰ الازدياد من الطاعات

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١١٩.
(٢) أخرجه البخاري ١/ ١٢ كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان ح١٦.
(٣) طريق الهجرتين ٢/ ٦٤٥.

التي هي محبوبات الله تعالىٰ، والنفرة من المعاصي والذنوب التي هي مكروهات الله تعالىٰ ومبغوضاته؛ وإنْ كانت محبوبة للنفس. وبالتالي فإنَّ المؤمن المحب لله صِدقًا - نسأل الله أن يسلك بي وإياكم هذا الطريق - يقيم في قلبه رقيبًا علىٰ نفسه وجوارحه وسلوكه، يمنعها من كل شيء يكرهه الله تعالىٰ ويبغضه من الأعمال والأقوال والأفكار، فتصبح المحبة مانعة له من ذلك، ويصبح القلب في عكوف دائم ومستمر علىٰ الطاعة والصلاح؛ مهما أحاط بصاحبه من مثيرات العصيان ومواطن الفساد.

وربما يتضح ذلك أكثر ما يكون في حالتين للإنسان: **وقت خلوته، ووقت شدته.**

أمَّا وقت خلوته فهو الوقت الذي يخلو فيه من الشواغل، ويغيب فيه رقيب الناس، ولا يبقىٰ ثمة إلا رقابة نفسه له، ورؤيته لرقابة الله عليه. هنا تتنازعه محبوبات النفس ومحبوبات الله تعالىٰ، فأيهما هو أشد حبًا له سلك طريقها، وقد جاء رجل إلىٰ حذيفة بن اليمان ﷺ فقال: يا أبا عبد الله، إني أخشىٰ أن أكون منافقًا. قال له: تصلي إذا خلوت؟ وتستغفر إذا أذنبت؟ قال: نعم. قال: اذهب فما جعلك الله منافقًا[1]. فجعل الطاعة في وقت الخلوة علامة علىٰ صحة الإيمان.

---

(١) تاريخ دمشق ٦١/ ٢٥١.

ولأهمية هذه الحال، أعني الخلوة التي تقدم فيها محبوبات الله تعالىٰ علىٰ محبوبات النفس، ولعمق دلالتها علىٰ وافر الحب الذي امتلأ به قلب صاحبها، كان له المنزلة العظيمة يوم القيامة، عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله.... ومنهم: ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1].

وأما وقت شدته، فإنَّ القلب في وقت الشدائد (لا يذكر إلا أحب الأشياء إليه، ولا يهرب إلا إلىٰ محبوبه الأعظم عنده)[2]، ويطيش القلب حينها عن كل محبوب قلَّ مقداره، فإنْ كان المحبوب الأعظم عنده هو الله عز وجلَّ لجأ إلىٰ جنابه، ولاذ بقوته وجلاله، وسأله مسألة المسكين، وتضرع إليه تضرع الذليل، وتبرأ من كل حول وقوة إلا حول الله وقوته سبحانه، ولم يلجأ إلىٰ البشر، ولم يجزع من القدَر، بل سلَّم ورضي، وصبر واصطبر. وإنْ كان قدْرُ الله تعالىٰ في قلبه أقلَّ من ذلك التجأ إلىٰ غيره، ولاذ بسواه من المخلوقين، وأصبح قلبه متعلقاً بهم، يرجو النجاة والسلامة من هذه الشدائد.

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ١٣٣ كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد ح٦٦٠.

(٢) طريق الهجرتين ٢/ ٦٦٧.

ومهما يكن؛ فإنَّ كل المؤمنين يحبون الله تعالىٰ ولا شك، لكن عمق هذا الحب هو الذي سيظهر علىٰ سلوك المؤمن وجوارحه، وعلىٰ موازناته القيمية وتفضيلاته بين الرغبات وتعامله مع الدوافع، فبقدر عمق محبة الله يكون حجم هذا الأثر، إنْ كان أثراً قويـًا أو أثراً ضعيفـًا.

وعليه، فإنَّ المربين الحاذقين، والعارفين - كما يسميهم ابن القيم رحمه الله تعالىٰ - هم الذين يستعينون في تربيتهم بغرس محبة الله تعالىٰ في نفوس الناس، لأنها ستولد في نفوسهم تربية ذاتية علىٰ فعل الطاعات، وترك الذنوب والمعاصي، وهذا هو عين ما ذكره ابن القيم في كلامه.

إننا سنستغني عن الكثير من الجهود التربوية إذ استطعنا أنْ نمسك بما يمكن تشبيهه بمفاصل التربية، وبذلنا لها بؤرة جهودنا التربوية، فحين ينسىٰ الناس الكثير من المفاهيم التي تلقوها، نكون قد نجحنا - بفضل الله تعالىٰ - في غرس ما يعينهم علىٰ دوام تربيتهم لذواتهم وتعاهدها بالإيمان، ومن تلك المفاصل التربوية: غرس محبة الله تعالىٰ في النفوس.

كيف نحبب الله تعالى إليهم؟

عادةً.. من غير المفيد حصر الوسائل والتقنيات، ذلك أنَّ حصرها يقتل الإبداع، ويضطر التفكير إلىٰ غلق ما من شأنه أنْ يكون مفتوحـًا.

ومن المهم – من وجهة نظري – أنْ تُعقدَ حلقات النقاش وورش العمل لتوليد الأفكار الكثيرة والمناسبة لغرس محبة الله تعالىٰ في النفوس، وتبقىٰ هذه الوسائلُ والتقنيات مسؤولية المربين، كما ينبغي أنْ تشغل ذهن الباحثين والمهتمين.

ولدينا – في هذا السياق – عدد من المواد الجاهزة، والفعالة في نفس الوقت، والتي ينبغي أنْ نولِّي وجوهنا شطرها، وهي كما يأتي:

أولاً: أسماء الله تعالىٰ وصفاته، إذ تتضمن كل معاني الكمال والجمال والجلال، والتي تحمل دلالات العناية الإلهية بالعباد والحكمة والعدل والرحمة، والتي من خلالها يتعرف الناس علىٰ حقيقة معبودهم الكريم، فيزدادون له عبودية وخضوعـًا ومحبة وإجلالاً، قال الله تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف:١٨٠]، قال ابن القيم: (من عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة)[1].

ثانيـًا: كلمات الله تعالىٰ، في كتابه العزيز، ففيها البركة والنور والهدىٰ، وبمعرفتها وفهمها وحفظها وتكرار قراءتها وتدبرها يتشرب القلب البشري حب الإله الذي تكلم بها، وأنزلها رحمة بالناس، قال

(١) مدارج السالكين ٣/ ١٨.

الله تعالىٰ: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم:١]، وقال تعالىٰ: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾ [طه:٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ [التغابن:٨].

ثالثًا: آيات الله الكونية، التي جعلها الله تعالىٰ كتابًا مفتوحًا سهل الاطلاع، قال الله تعالىٰ: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [فُصِّلَت:٥٣]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة:١٦٤]، وتأمل كيف جاءت هذه الآية قبل قول الله تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادٗا يُحِبُّونَهُمۡ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ: (معرفة الله سبحانه نوعان: معرفة إقرار، وهي التي اشترك فيها الناس، البر والفاجر، والمطيع والعاصي. والثاني: معرفةٌ توجب الحياءَ منه، والمحبةَ له، وتعلقَ القلب به، والشوقَ إلىٰ لقائه، وخشيتَه والإنابةَ إليه، والأنسَ به والفرارَ من الخلق إليه..؛ ولهذه المعرفة بابان واسعان: باب التفكر والتأمل

في آيات القرآن كلها، والفهم الخاص عن الله ورسوله، والباب الثاني: التفكر في آياته المشهودة، وتأمل حكمته فيها وقدرته ولطفه وإحسانه، وعدله وقيامه بالقسط علىٰ خلقه.

وجماع ذلك: الفقه في معاني أسمائه الحسنىٰ وجلالها وكمالها، وتفرده بذلك، وتعلقها بالخلق والأمر، فيكون فقيهـًا في أوامره ونواهيه، فقيهـًا في قضائه وقدره، فقيهـًا في أسمائه وصفاته، فقيهـًا في الحكم الديني الشرعي والحكم الكوني القدري، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم)[1].

إننا بحاجة إلىٰ إنتاج العديد من التقنيات والوسائل المتنوعة التي تحبب الله تعالىٰ إلىٰ النفوس، وأنْ نوجِّه تفكيرنا نحو هذا المفصل التربوي، ليحقق لنا أصل العبادة باعتباره هدفـًا تربويـًا، ولكونه معينـًا تربويـًا فعالاً.

* * *

(١) الفوائد، ص٢٤٩.

أبناء الآخرة

قال أبو علي الحسن بن علي الدقاق رحمه الله: (مَنْ أكثر مِنْ ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومَنْ نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضىٰ بالكفاف، والتكاسل في العبادة)[1].

هذا ما يفعله ذكر الموت في قلب ذاكره وجوارحه، إنه باختصار: يصحح مسار الحياة.. هكذا يراه سلف الأمة وعلماؤها وصالحوها وأرباب الأحوال فيها. لقد تواطأت مذاهبهم وعباراتهم علىٰ أهمية ذكر الموت في إصلاح الإنسان، مستندين في أهمية ذكره إلىٰ حديث نبينا ﷺ: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»[2].

والموت هو إعلان القيامة، ولكنها القيامة الخاصة بكل حي، قال المغيرة بن شعبة رضي الله عنه: (يقولون: القيامة القيامة! وإنما قيامةُ أحدِهم: موته)، وعن أبي قبيس قال: (شهدت جنازة فيها علقمة، فلما دفن قال: أما هذا فقد قامت قيامته)[3]، وما يعقب الموتَ إلا توالي منازل الآخرة، ابتداءً بالقبر، ومروراً بأهوال البعث والنشر، وانتهاء بالمستقر؛

(١) التذكرة للقرطبي، ص١٤.
(٢) أخرجه الترمذي ٤/ ٥٥٣ كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكر الموت ح٢٣٠٧.
(٣) أخرجهما الطبري في تفسيره ٢٣/ ٤٦٨.

إما النعيم في الجنة، وإما العذاب في النار، عن عثمان بن عفان ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ القبر أول منازل الآخرة»[1].

والآخرة نقيض الدنيا، والقرآن الكريم كثيراً ما يقارن بينهما، ويجعلهما قبالة بعض، قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:٦٤]. إنها الحياة التي تظهر فيها كل حقيقة، ويختفي فيها كل وهم، سواء كان هذا الوهم لهواً أو لعبًا أو زينةً أو تفاخراً أو تكاثراً، قال السعدي رحمه الله: (أي: الحياة الكاملة، التي من لوازمها أنْ تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، لأنها أبدان وقوىٰ خلقت للحياة، وأنْ يكون موجوداً فيها كل ما تكمل به الحياة، وتتم به اللذات من مفرحات القلوب، وشهوات الأبدان؛ من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر)[2].

منذ أنْ يحضر ملك الموت لقبض روح الإنسان.. منذ تلك اللحظة تتكشف الحقائق لدىٰ هذا الميت، وتبدأ حياته الجديدة، تحمل معها قوة جديدة، وأسلوبَ حياةٍ جديد، وتفاصيل عيش جديد؛ هو أطول

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/ ٥٥٣ كتاب الزهد، باب ما جاء في ذكر الموت ح٢٣٠٨.
(٢) تفسير السعدي ٣/ ١٣٢٤.

من الحياة السابقة بكثير، بل لا مقارنة بينهما في المدة والقوة والتأثير. قال الله تعالىٰ: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:١٩-٢٢].

لقد كان النبي ﷺ كثيراً ما يلفت الانتباه إلىٰ أنَّ الدار الآخرة هي دار الحقائق، ويشير إلىٰ أنَّ كثيراً من الموجودات والتصورات المعروفة في عالم البشر تحمل حقائق أخروية مختلفة عن ماهيتها في الدنيا، في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون ما المفلس؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إنَّ المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا؛ فيعطىٰ هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإنْ فنيَتْ حسناته قبل أنْ يقضىٰ ما عليه أُخِذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طرح في النار»[1].

بل أشار القرآن - وهو يربي المؤمنين - إلىٰ أنَّ التشابه بين الموجودات في عالمي الدنيا والآخرة؛ إنما هو في الأسماء، أما الماهيات فمختلفة اختلاف الوهم والحقيقة، قال الله تعالىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٩٩٧ كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم ح٢٥٨١.

ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُوا۟ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُوا۟ هَـٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَـٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢٥]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لا يشبه شيءٌ مما في الجنة ما في الدنيا إلا في الأسماء، وفي رواية: ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء)[١].

تلك الأمثال والإشارات الواردة في الكتاب والسنة إلىٰ هذا الأمر من مقاصدها تربية الناس علىٰ التعامل مع تفاصيل اليوم الآخر بوصفها حقائق، والتعامل مع كل زخم حياتنا الدنيا وكل مباهجها ومفارحها وملذاتها بوصفها أوهامًا، أو ظلاً عن قليل سيزول، أو رحلةً عن قريب ستنتهي، وإنَّ علىٰ الناس أنْ يتهيؤوا لتلك الحياة الجديدة الخالدة.. الحياة الحقيقية.

سلطان الأعمال والسلوك

بوجه عام؛ فإنَّ الناس لا يكونون مؤمنين حتىٰ يؤمنوا باليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء والجنة والنار.

أما حين نريد تزكية النفوس وتربية الناس؛ فإننا بحاجة إلىٰ عرض تفاصيل هذا النوع من الإيمان، وهو اليوم الآخر ومشاهده وأهواله وحيثياته، التي عرضها كتاب الله العزيز، وسنة نبينا الكريم ﷺ، لما

---

(١) تفسير ابن كثير ٢/ ٢٠٥.

فيها من زيادة الإيمان وغرس اليقين، كما وصف حنظلة ﷺ مجلسه مع النبي ﷺ حيث قال: (نكون عند رسول الله ﷺ، يذكرنا بالنار والجنة حتىٰ كأنَّا رأي عين!)[1].

هذا الوصف المتنوع عن اليوم الآخر في نصوص الوحي، والذي يتناوله بكل التفاصيل والشمول والعمق يختصر المسافات في تربية الناس، فيبعث في القلب رقابة وجدانية، تقوم بترشيح العمل الصالح وتعضده، وتمنع العمل السيئ والسلوك الخاطئ من الانبعاث، فيستقيم الإنسان في عمله، لأنَّ قلبه يحدثه أنه محاسب يوم القيامة علىٰ هذا العمل، ويستقيم لسانه، لأنَّ قلبه يذكِّره بأنه محاسب علىٰ كل أقواله.

الاستقامة أبرز الصور الناتجة عن عمق الإيمان باليوم الآخر، لهذا فإنَّ الاستصحاب التربوي لمشاهد وتفاصيل اليوم الآخر من أكثر ما يعين المربين علىٰ إصلاح نفوس من يخاطبونهم، ومعالجة انحرافاتهم، وتقويم اعوجاجاتهم.

كثيراً ما يستخدم القرآن هذا النموذج في تعديل سلوك الناس، تأمل قول الله تعالىٰ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ۝٤

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢١٠٦ كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة... ح ٢٧٥٠.

وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلۡمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ [الهُمَزة:١-٩]. تفاصيل دقيقة تُعرض في سياق الحديث عن سلوك خاطئ. هذا هو النموذج الأمثل في إصلاح الانحرافات السلوكية. وتأمل كيف يحفز القرآن هذه النفس إلىٰ العمل الصالح بعرض عاقبته في الآخرة، قال الله تعالىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦-١٧]، هذا هو نشاط العبادة، وتعجيل التوبة؛ كما يعبر عنه الشيخ أبو علي الدقاق.

واستصحاب مشاهد وتفاصيل اليوم الآخر كفيلة بأنْ تعصمك من الزلل والوقوع في الإثم، ألم تسمع قول الله تعالىٰ: ﴿لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٤-٤٥]، قال الشنقيطي رحمه الله: (الإيمان باليوم الآخر كثيراً ما يجعله الله مذكوراً مع الإيمان به؛ لأنَّ من لم يؤمن باليوم الآخر لا يخاف بأساً يوم القيامة، ولا يطمع في خير، فهو يفعل ما يشاء، فالكفر باليوم الآخر رأس كل شر، والإيمان به رأس كل خير)[1]. وإنْ كنا نوقن بأنَّ

(١) العذب النمير ٦/ ٥٣٦.

شبابنا غير كافرين باليوم الآخر، إلا أنه من المؤكد أنَّ طغيان المادة والشهوات قد أوقعني وكثيراً منهم في داء الغفلة عن ذلك اليوم، أو (النسيان)؛ كما يسميه أبو علي الدقاق.

وأعظم ما يبعثه الإيمان باليوم الآخر: تعظيم الله تعالىٰ، إذ لا تبقىٰ بعد ساعة الموت سلطة أو ملك إلا سلطان الله وملكه، بل هو سبحانه ينادي في ذلك اليوم نداء جبروتيـًا عظيمـًا فيقول: لمن الملك اليوم؟

فذكر الآخرة يشيِّد في القلب بناء التعظيم والخوف والإجلال، حتىٰ يصير أقوىٰ رادع للإنسان عن انتهاك الحرمات، ولما راود الرجل بنت عمه علىٰ حين حاجة منها إلىٰ المال، وأراد مواقعتها مقابل هذا المال، فمكنته من نفسها، قالت له حينها: اتق الله! فتزلزلت قواه، وأُلجم هواه، خوفـًا من حساب الله له يوم الدين، فانكفأ عن تلك الفاحشة. ولذلك كان من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة: «رجل دعته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله»[1].

إنَّ الشعور الدائم بخطورة الجزاء يوم القيامة علىٰ أعمال العباد ليمثل سلطانـًا حقيقيـًا علىٰ السلوك، إذ يصنع الرقابة الوجدانية، تلك الرقابة التي تتحكم تمامـًا في نوع العمل الصادر من الإنسان،

(١) أخرجه البخاري ١/ ٤٤٠ كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين ح١٤٢٣.

كما يقوم هذا الشعور بصناعة المعايير القيمية الحاكمة علىٰ كافة التصرفات والخواطر والأفكار.

أما في مجال البذل والتضحية والفداء فإنَّ من قامت في قلوبهم حقائق اليوم الآخر تهون عليهم أنفسهم وأموالهم وممتلكاتهم في سبيل الله؛ إذ علموا أنَّ الثمن جنة عرضها السماوات والأرض، فلا حاجة أصلاً في الترجيح بينها وبين الدنيا الفانية الزائلة.

وأما سلطان المادة فإنه يضعف ويذوب إذا ما قام في القلب واعظ الإيمان باليوم الآخر الآخر، فلم تعد لكل تفاصيل الدنيا قيمة تذكر في قلبٍ ممتلئ بحقائق الجنة والنار.

من أجل ذلك؛ يحسن الاهتمام بتربية الناس علىٰ هذا الشعور، ومحاولة غرسه في أعماق وجدانهم، لأنه في حد ذاته يقوم بدورٍ تربوي داخل الفرد، يعصمه من الذنوب، ويدفعه إلىٰ العمل الصالح، بتلقائية واعتياد.

التذكر الدائم لأحوال الآخرة مفصل من مفاصل التربية الإسلامية، وركيزة من ركائزها، ينبغي أنْ يستصحب في كافة مراحل التربية، ولا ينقطع بانتهاء مرحلة من المراحل. لقد نزل في أواخر ما نزل من القرآن الكريم آية تذكر المؤمنين باليوم الآخر، يقول الله تعالىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٨١].

غذاء نافع ودواء ناجع

لكي يجعل المربي من طلابه أبناءً للآخرة؛ عليه أنْ يتلمس الهدي القرآني والهدي النبوي في صناعة الإنسان الذي سماه علي بن أبي طالب: ابن الآخرة.

ومن أبرز الطرق التي تصنع هذا الإنسان بهذا الوصف: ربط السلوك الصادر من الإنسان باليوم الآخر، سواء كان ذلك في التحفيز إلىٰ العمل الصالح، أو في تصحيح الأخطاء، أو في سائر المعالجات الموقفية.

حين قَتل أسامةُ بن زيد رجلاً في المعركة بعد تلفظه بالشهادة، قال له النبي ﷺ: «فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟». قال أسامة: يا رسول الله، استغفر لي. قال: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟». فجعل لا يزيده علىٰ أن يقول: «كيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة؟»[1].

مهما كبرت المسألة فإنَّ التذكير الآني باليوم الآخر سيكون له وقعه المؤثر وفعاليته الإيجابية في نفس المخاطَب؛ شريطة أنْ يُحسن عرضه، لذلك قال أسامة: (فما زال يكررها علي، حتىٰ تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم)، وذلك من شدة ندمه وتوبته رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم ١/ ٩٧ كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أنْ قال: لا إله إلا الله ح٩٧.

وفي حقيقة الأمر أنَّ حشداً كبيراً من نصوص القرآن الكريم، وسيرة النبي ﷺ، وتأثر أصحابه ﷺ بهذا النمط من المعالجات التربوية كقصة أبي الدحداح وبستانه الذي باعه، وقصة عثمان بن عفان والبئر التي أوقفها للمسلمين وتجهيزه لجيش العسرة، وقصة عمير بن الحمام والتمرات التي ألقاها في أرض بدر...، وغيرها الكثير، لتدل دلالة واضحة علىٰ تأثير استصحاب مشاهد وتفاصيل اليوم الآخر في تربية أصحاب النبي ﷺ، حتىٰ أصبحوا من أبناء الآخرة. قال علي بن أبي طالب ﷺ: (ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحدة منهما بنون. فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا، فإنَّ اليوم عملٌ ولا حساب، وغداً حسابٌ ولا عمل)[1].

محاضننا التربوية قادرة علىٰ أنْ تكون مخرجاتها من أبناء الآخرة؛ إذا عزمت علىٰ ذلك وأبصرت الطريق.

* * *

(١) أخرجه البخاري ٤/ ١٧٦ كتاب الرقاق، بابٌ في الأمل وطوله، معلقًا.

تربية الإرادة

(في زمنكم عارضٌ من انحلال الأخلاق؛ بعضُ أسبابه في الواجدين الاسترسال في الشهوات، وبعض أسبابه في المعدمين التشوُّف إليها، وأكبر أسبابه في الجميع الاستعمار وأساليبه في علاج المرض بالموت، وغسل النجيع بالرجيع؛ فعالجوا هذا الداء قبل حلوله في نفوس الصغار بتقوية العزائم والإرادات فيهم، وبتعويدهم الصوم عن الشهوات، وبتحبيب العمل إليهم)[1].

بهذه الفقرة يشخِّص العلامة محمد البشير الإبراهيمي - رحمه الله تعالىٰ - الداء، ويصف للمربين الدواء.

وقد كانت هذه الوصية قبل أكثر من نصف قرن من الزمان، لكننا اليوم، وفي ظل الانفجار الرقمي، وهيمنة أدوات التواصل وقنوات البث أحوجَ ما نكون إلىٰ هذه الوصية الإبراهيمية.

التحدي الكبير

يتحدث المربون في المحاضن التربوية عَنْ معضلة حقيقية - وإنْ كان التعامل معها يتخذ منحىٰ الكتمان في الحلول، والستر علىٰ المتلبسين بها - تكمن في عكوف شريحة من الطلاب علىٰ مطالعة

(١) آثار الإمام ٣/ ٢٧١.

قنوات (اليوتيوب)، ومتابعة وسائل التواصل الاجتماعي، إذ تمثل المقاطع الإباحية والمقاطع الداعية إلىٰ الرذيلة والفحش والخنا جزءاً من مرئيات هذا النشء.

وإذا كانت المحاضن التربوية سابقـًا قد نجحت بتوفيق الله تعالىٰ في حماية طلابها من خطر القنوات الفضائية، فإنها اليوم تبدي شيئـًا من العجز أمام تلك الوسائط الجديدة، بما تمتلكه هذه الوسائط من قدرات إعلامية مؤثرة ومهارات تواصلية جذابة، وقد تمكنت، ولا شك، من كسر حاجز الرقابة الخارجية.

الحديث اليوم عن خطر هذه الوسائط ليس قليلاً، وتستخدم فيه عدد من تقنيات الإقناع، لكن النتيجة تبدو أقل بكثير مما تطمح إليه المحاضن التربوية.

بعض المربين يفضِّل أنْ يغمض عينيه إزاء هذه المعضلة، لا لتكاسله، فهو مجتهد مثابر في أداء رسالته التربوية، وإنما يفضل ذلك لعجزه عن إيجاد الحلول اللازمة لهذه المعضلة، وربما لعجزه أيضـًا عن استيعابها وإدراك أبعادها، وربما لسبب ثالث: ورعه وخوفه من الولوغ في مستنقعٍ طالما كان متجنبـًا عنه.

فكيف إذا ضممتَ إلىٰ هذه المعضلة قريناتها من الوسائط والمناشط المختلفة التي تطبِّع الرذيلة وتدعو إلىٰ الانحلال!؟

إنَّ الله تعالىٰ لم يكْتفِ بنهي المسلمين عن الفاحشة، بل نهاهم عن الاقتراب منها، لأن والج الباب لا بدَّ أنْ يدخل؛ إذا لم يعصمه الله تعالىٰ. قال الله تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام:١٥١]، قال الشنقيطي رحمه الله: (فيه سرٌّ عظيم، وتعليم كبير؛ لأنه لم يقل: ولا تفعلوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، لم ينهَ عن فعلها فحسب، بل نهىٰ عن قربانها؛ لأنَّ من قرب من الشيء قد يقع فيه، والراتع حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه، فبيَّن في هذه الآية أنَّ الفواحش - وسنبين معناها - أنَّ الإنسان منهي عن أن يقربها؛ لأنَّ القرب منها مظنة للوقوع فيها، كالراعي حول الحمىٰ يوشك أن يقع فيه)[1]. وجيل المحاضن اليوم معرَّض لكثير من دواعي الفاحشة والرذيلة، فكيف نجنبه الاقتراب منها ليكون ممتثلاً لأمر الله تعالىٰ، وليكون في عصمة من الوقوع في الفواحش؟

إنَّ المحاضن التربوية اليوم تعالج هذا التحدي الكبير، وعليها بذل وسعها في معالجته، وسيجعل الله تعالىٰ لها من أمرها يسراً.

قلب صامد لا يتزعزع

في ظل هذه المعطيات يتحتم علىٰ المربين أنْ يولوا صناعة القلوب القوية والعزائم المتقدة عنايتهم واهتمامهم، إذ يمثِّل القلب مركز التحكم في السلوك والإجراءات.

---

(١) العذب النمير ٢/ ٨٢٨.

والعلامة الإبراهيمي رحمه الله يرىٰ لحلِّ هذه المشكلة تقويةَ العزائم والإرادات من خلال طريقتين: **التعويد علىٰ الإمساك عن تعاطي الشهوات، وتحبيب العمل إلىٰ النفوس**، وهي مسألة قلبية في الأصل، ومن طبيعتها أنْ تطبع أثراً سلوكيًا نافعًا. فهو يرىٰ أنَّ مدار التربية في هذه الحال علىٰ صناعة قلبٍ قادرٍ علىٰ تجاوز عقبات العاطفة، متمكنٍ من لجمِ خطام الشهوة، مدركٍ لعظيم الأجر المترتب علىٰ الصبر عن هذه المفاتن الواقعة عند أقدامه.

ولعله في هذه اللفتة يستدعي قول نبينا ﷺ: «ألا وإنَّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

وحقيقة العزم هي استجماع قِوىٰ الإرادة علىٰ الفعل[2]، أيْ وصول إرادة الفعل إلىٰ منتهاها، فلا تنقضي هذه الإرادة دون أنْ يتحقق الفعل ويقع.

والإرادة علىٰ هذا الوجه من القوة والإصرار لا تكون من الإنسان إلا إذا تربىٰ قلبه عليها، وتعوَّد علىٰ ملابستها، حتىٰ يصبح قلبه متصفًا بقوة الإرادة وبقوة العزيمة، ويظهر هذا من سلوك هذا الإنسان، إذ

---

(١) أخرجه البخاري ١/ ٣٤ كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه ح٥٢.
(٢) مدارج السالكين ١/ ١٥٢.

يتصف بالإقدام والعفة والاستقامة والثبات والمروءة ونحوها، كما يظهر أيضـًا من مواقفه، كرباطة الجأش والصبر والتجلد وسداد الرأي ونحوها، ولذلك ذكر الإبراهيمي ضبط النفس عن الشهوات، وحب العمل، وتحمل مسؤوليته. وهي صفاتٌ - كما ترىٰ - غاية في النُبل والخلق الرفيع، وقد حكىٰ القرآن الكريم قصة شاب بلغت العزيمة والإرادة في قلبه الغايةَ في قوَّتهما، فكان في مختلف المواقف الشديدة رابط الجأش، ثابت الحال، متزن المزاج، إنه يوسف عليه السلام، وقد علمنا من أخباره الدالة علىٰ ذلك، والتي كان من أشدها أنْ تراوده امرأة ذات منصب وسلطة وجمال وغنج، في وقتٍ كان هو فيه أحوج ما يكون إلىٰ امرأة تكون بقربه، لكنه تعفف، وقال: معاذ الله! ثم هرب مسرعـًا. لقد دعته نفسه إلىٰ مواقعتها، ونادته غرائزه: أنْ أقبِل، هذه فرصتك التي لا تقدر بثمن، حيث الفتنة والباب المغلق، لكنَّ قوة قلبه كانت هي الحاكمة، وكانت سلطتها علىٰ سلوكه تفوق سلطة الهوىٰ والمزاج والغريزة.

أما من ضعفت إرادته وفترت عزيمته فهو متردد الحال، لا يثبت علىٰ استقامة، سريع التقلب، مزاجه حاكم علىٰ سلوكه، تخطفُ بصرَه الألوانُ والأضواء والأشكال، وتتجاذبه الأهواء والأفكار والأطروحات، ويستخفه الذين لا يوقنون، وتلتف حول جسده حبائل الشهوات.

تالله لقد أصبحت تقوية العزائم والإرادات اليوم من واجبات التربية المتحتمة، فالشباب المسلم يتعرض اليوم إلىٰ سيل من شهوات النساء، وسيل من شهوات المال، وسيل من شهوات المكانة والمنصب..؛ اليوم تباع المبادئ في مزاد الرذيلة، وتُدفن القيم في مقبرة التفاهة والخفة، فهل تقوم محاضن التربية اليوم علىٰ إعادة تأهيل القلوب وترميم النفوس، وصناعة الإرادات والعزائم، لتستطيع تخريج أَلْفَ يوسف، أو ألف ألف يوسف؟!

طريق العزيمة

قد يتساءل البعض عن السبيل إلىٰ صناعة هذا النمط من القلوب والنفوس التي تتحمل المشاق في طاعة الله تعالىٰ، وتتشبث بالصبر عن مساخطه ومناهيه! ولاشكَّ أنَّ ذلك مما تعقد له حلقات النقاش والمدارسة؛ إذ باتت أهميته وضرورته من الوضوح بمكان. وسأذكر شيئًا يسيراً من هذه الطرق:

١- **تكوين الصورة الإيجابية عند الشاب عن نفسه**، بحيث نجعله ينظر إلىٰ ذاته نظرة تقدير واحترام، لأنَّ هذه النظرة الإيجابية نحو ذاته ستعينه كثيراً علىٰ التذمم والمروءة، وستسلك به طريق الثبات والرسوخ بإذن الله.

وهذه النظرة الإيجابية نحو الذات يصنعها المربي بقبوله للشاب، أعني إظهار القبول والتفهم لشخصه ولعمله ولسلوكه، وإظهار القبول لاختياراته ولقراراته ولإيراداته ولأفكاره، وتعزيز نجاحاته مهما صغرت، ومعالجة أخطائه برفق ولين مهما عظمت، والتواصل معه بلغة دافئة حميمية، تجرئه علىٰ طرح أفكاره لديه دون خوف من اللوم والعقاب، ألم ترَ أنَّ يوسف ذلك الطفل الصغير كان يقص علىٰ أبيه رؤيا الشمس والقمر والكواكب، وأنَّ أباه يبادله الحديث، ويوجهه التوجيه العطوف.

كما تصنعها تلك البرامج والمشروعات التي تبعث في النفوس الهمة العالية والطموح الراقي، والتي ينخرط فيها الشباب فتتكون لديهم هذه الهمم وهذا الطموح، فيجدون ذواتهم التي تاهت في دروب الغواية، ويتعرفون علىٰ مواطن القوة والنبل والخير فيها.

إنَّ تحويل محاضننا التربوية إلىٰ بيئات عمل حقيقية ذات إنتاج ملموس سيصنع شباباً رائعين، يحبون العمل ويقدرون قيمته، وينظرون إلىٰ أنفسهم نظرة رجولة وإيجاب، وسيتلاشىٰ من نفوسهم التشوف إلىٰ التلطخ بالقاذورات.

إننا بهذه الطريقة سنعيد إلىٰ الشبابِ الثقةَ بأنفسهم، وسنفتح لهم أبواباً من الخير والنفع والصلاح، وسنبني لدىٰ نفوسهم إرادة صلبة وعزيمة لا تفتر.

التذكير الدائم بأمرين: قدْرِ الله تعالىٰ، والحسابِ يوم القيامة، فإنَّ حضورهما الدائم في قلب الإنسان سيولِّد رقابة ذاتية علىٰ النفس، وخشية لله تعالىٰ، ومحاسبة دائمة، وهذه أمور من شأنها أنْ تصنع قلباً قوياً، وإرادة فولاذية لا تكسرها سهام الشهوات والفتن والأهواء. هكذا ربىٰ القرآن الكريم محمداً ﷺ وأصحابه الأجلاء، قال الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام:١٥-١٨].

تعظيم الله تعالىٰ ومخافة الحساب يوم القيامة معينان للشاب علىٰ حماية نفسه من وحل المعاصي والخطايا. إنَّ الميزان الذي أخبرنا الله تعالىٰ عن وضعه يوم القيامة، سيضعه الإنسان في خلده وهو حي يرزق، ليزن به الأعمال قبل التلبس بها، حتىٰ لا يخسر الصفقة في الآخرة.

٢- **التربية علىٰ الصبر، بأنواعه الثلاثة:** الصبر علىٰ طاعة الله، والصبر عمَّا حرم الله، والصبر علىٰ الأقدار المؤلمة، بالتذكير والموعظة والمعايشة والمتابعة، والصبر في أصله هو الحبس، ومعنىٰ ذلك أنَّ الصابر يجيد التحكم في عاطفته ومزاجه ونوازعه. فالتربية

علىٰ الصبر هي تربية علىٰ التحكم الجيد في تلك الأمور التي من شأنها التفلت والتذبذب. عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأةً من أهل الجنة؟ قلت: بلىٰ. قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي ﷺ فقالت: إني أُصرع وإني أتكشف، فادع الله لي. قال: «إن شئتِ صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوت الله أنْ يعافيك». فقالت: أصبر. فقالت: إني أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف. فدعا لها[1]. كانت لديها فرصة بأنْ تكسب دعوة النبي ﷺ لها بالشفاء؛ وهذا أمرٌ مباح، لكنَّ تربية العزائم تتطلب أنْ يتعود المسلم مرافقة البلاء والعناء، والصوم عن الترفه والتنعم شيئًا ما؛ لا لأجل تعذيبه، وإنما لتصحَّ عزيمته وتقوىٰ إرادته؛ فيكون قويًا أمام سيل الشهوات والإغراءات.

ومن أعظم ما يعين في التربية علىٰ الصبر: التربية علىٰ لزوم العبادات التي لا يجد الإنسان فيها حظًا دنيويًا، سواء كان ذلك الحظ ماديًا أم كان معنويًا، فإن لزوم العبادات التي هذا شأنها يصنع قلبًا صامداً قويًا ثابتًا، مستعليًا علىٰ الصغائر والرذائل.

وهي العبادات التي تحمل طابع الخفاء؛ كالصلاة في الخفاء، والصدقة التي لا يراها أحد، وذكر الله وتلاوة القرآن، أو غيرها مما

---

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٢٥ كتاب المرضىٰ، باب فضل من يُصرع من الريح ح٥٦٥٢.

لا تطالعه عين، ولا تلتقطه أذن، ولا يجد لها صدىٰ في مديح القوم أو تقويمهم.

إنَّ لزوم عبادات هذا شأنها سيصهر القلب، ليصنع منه قلباً حياً ذا إرادة صلبة.

هذه بعض الطرق المعينة علىٰ تربية الإرادات، وقد أشار العلامة الإبراهيمي - رحمه الله تعالىٰ - إلىٰ جزء منها، وعلىٰ المربين سبر المزيد من الطرق، وتوليد الأفكار الإبداعية الموصلة إلىٰ تربية الإرادات وتقوية العزائم.

* * *

أدب المدينة

قال عبد الله بن وهب رحمه الله تعالىٰ: (ما نقلْنا من أدبِ مالكٍ أكثرُ مما تعلمنا من علمه)[١].

عبد الله بن وهب هذا من أجلِّ طلاب إمام المدينة، مالك بن أنس رحمه الله تعالىٰ، سمع الحديث وحفظه ووعاه ودوَّنه، حتىٰ أصبح من كبار أوعية العلم في عصره، قال ابن القاسم: (لو مات ابن عيينة، لضُربت إلىٰ ابن وهبٍ أكبادُ الإبل؛ ما دوَّن أحدٌ تدوينه). وقال أبو زرعة: (نظرتُ في نحو من ثلاثين ألف حديث لابن وهب، ولا أعلم أني رأيتُ له حديثًا لا أصل له)[٢]. هذه بعض شهادات القوم من الفقهاء والمحدثين عن سعة علمه وحفظه، أما بخصوص استفادته الفقهية من الإمام مالك رحمه الله؛ فيقول أبو مصعب الزهري: (مسائله عن مالك صحيحة)[٣]. بل كان الإمام مالك يعرف له هذا القدر؛ قال الذهبي: (وبلغنا أن مالكًا الإمام كان يكتب إليه: «إلىٰ عبد الله بن وهب مفتي أهل مصر». ولم يفعل هذا مع غيره)[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ١١٣.
(٢) الروايتان في سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٢٥.
(٣) المصدر السابق ٩/ ٢٢٦.
(٤) المصدر السابق ٩/ ٢٢٧.

وهو هنا يلخص تجربته العلمية ومسيرته التربوية في جملة واحدة، قصيرة المبنىٰ، عميقة المعنىٰ، وهي رسالة ينقلها إلىٰ الأجيال التي تقع عليها المسؤولية التعليمية والتربوية، تبين بجلاء أنَّ (الأدب) قضية متصلة تماماً بقضية (العلم)، قال أبو زكريا العنبري: (عِلمٌ بلا أدبٍ كنارٍ بلا حطب، وأدبٌ بلا علم كروح بلا جسم)[1].

لقد كان مفهوماً واضحاً لدىٰ سلف الأمة أنَّ (الأدب) محور تأثير في تعليم الناس، وتوالت توجيهاتهم المسددة في ذلك، يقول مخلد بن الحسن لابن المبارك: (نحن إلىٰ كثير من الأدب أحوج منا إلىٰ كثير من الحديث). وهو يقصد بالحديث: طلبه وتلقيه وحفظه وتدوينه. وقال ابن سيرين: (كانوا يتعلمون الهدي كما يتعلمون العلم). وقال حبيب بن الشهيد لابنه إبراهيم: (يا بني! ايت الفقهاء والعلماء، وتعلم منهم، وخذ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم؛ فإنَّ ذاك أحبُّ إليَّ لك من كثير من الحديث)[2].

لم تعد القضية مجرد إجراءات تعليمية وأداء للأنشطة اللازمة للمقررات وإنهاء للواجبات، إذْ يمثل الأدبُ روحَ التعلم ووهجه ورواءه.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٢٢.
(٢) انظر هذه الآثار في: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/ ١٢١-١٢٢.

تمدين التربية

حين دعا سلفنا الصالح إلىٰ الأدب فإنهم - ولا شك - يعنون أدب المدينة النبوية، الأدب الذي عمل نبينا ﷺ علىٰ صبغ تلك البقعة وساكنيها به، حتىٰ أصبح (أهل المدينة) نسيجًا اجتماعيًا جديداً فريداً له صبغته الأخلاقية الخاصة ومفاهيمه المتفردة.

وحين نقول: أدب المدينة، فإننا نعني بالأصالة مدينة رسول الله ﷺ، إذ هي منبع الأدب والفضائل بما صبغ الله أهلها من الشريعة الغراء، وكذلك هي بمعناها المقابل للحضارة، وبمعناها المقابل للقرية والبادية.

لقد كان نبينا ﷺ واضحًا منذ البداية في الفرادة والسمو اللذين ينتهجهما للمهاجرين والأنصار، فحين كتب وثيقته مع اليهود في المدينة؛ افتتحها بقوله: «هذا كتاب من محمد النبي ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم: إنهم أمة واحدة من دون الناس»[1].

وهذا النموذج الفريد في السمو والأدب كان له لوازمه، إذ أصبح لأهل المدينة من المهاجرين والأنصار الذين قطنوا المدينة بجوار

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٢/ ١١٥.

رسول الله ﷺ امتيازٌ خاصٌّ بهم من الحقوق والواجبات، يختلف نوعـًا ما عن حقوق الأعراب الذين أسلموا، لكنهم فضلوا البقاء في مواطنهم خارج المدينة.

لقد عمل نبينا ﷺ علىٰ تربية أصحابه المدنيين وتهذيب أخلاقهم، والارتقاء بمستوىٰ سلوكهم إلىٰ أنْ صاروا نماذج رائعة يحتذىٰ بها، فأصبحوا عناوين للصدق والأمانة وسلامة القلب والبراءة والحب والمواساة والإحسان.

لم تكن البشرية حينها - وإلىٰ الآن - بحاجة إلىٰ تشييد العمران والتباهي بالأرقام، وإنما كانت - ولا زالت - بأمس الحاجة إلىٰ تربية تطبع النفوس بطابع المدينة، فتتحول إلىٰ كائنات ملائكية، طائعة نافعة أمينة.

وهو هذا الهدي الذي كان سلفنا الصالح يضربون أكباد الإبل لكي يتعلموه ويتصفوا به؛ فيعدوا من المرتقين في مدارج السمو، وهذا السمت الصالح الذي جعلته الشريعة جزءاً من النبوة، قال ﷺ: «السمت الحسن، والتؤدة والاقتصاد جزء من أربعة وعشرين جزءاً من النبوة»[1]. قال الصنعاني رحمه الله تعالىٰ: (أي حسن الهيئة

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/ ٣٦٦ أبواب البر والصلة، باب ما جاء في التأني والعجلة ح٢٠١٠.

والمنظر، وأصل السمت الطريق، ثم استعير للزي الحسن والهيئة المثلىٰ في الملبس وغيره)[1]. وقال ابن عبد البر رحمه الله تعالىٰ: (الوقار والحياء وسلوك طريقة الفضلاء)[2].

وكان أشبه الناس هديـًا برسول الله ﷺ - وكل الصحابة يتشبهون به - هو عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال حذيفة رضي الله عنه: (إنَّ أشبهَ الناس دَلّاً وسمتـًا وهديـًا برسول الله ﷺ لابنُ أمِّ عبد من حين يخرج من بيته إلىٰ أن يرجع إليه)[3]. قال أبو عبيد رحمه الله تعالىٰ: (الهديُ والدلُّ متقاربان، يقال في السكينة والوقار، وفي الهيبة والمنظر والشمائل. والسمت يكون في حسن الهيئة والمنظر من جهة الخير والدين لا من جهة الجمال والزينة، ويطلق علىٰ الطريق، وكلاهما جيد بأنْ يكون له هيئة أهل الخير علىٰ طريقة أهل الإسلام)[4]. وللتنبيه؛ فإنَّ قول أبي عبيد: لا من جهة الجمال والزينة، لا يعني تنافيهما مع السمت، وإنما ينفي التلازم بينهما، والله أعلم.

ثم اجتهد أصحاب عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في الكوفة في اقتباس سمته وهديه وأدبه المدني، فكان علقمة في الرأس من ذلك، وهكذا

---

(١) التنوير شرح الجامع الصغير ٥/ ١١٢.
(٢) الاستذكار ٨/ ٤٥٢.
(٣) أخرجه البخاري ٤/ ١٠٩ كتاب الأدب، باب في الهدي الصالح ح٦٠٩٧.
(٤) فتح الباري ١٠/ ٥٢٦.

كان السلف يتربون علىٰ تلك الأخلاق والآداب المدنية، كابراً عن كابر، قال رباح أبو المثنىٰ رحمه الله تعالىٰ: (إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترىٰ عبد الله، أشبه الناس به سمتًا وهديًا، وإذا رأيت إبراهيم النخعي، فلا يضرك أن لا ترىٰ علقمة، أشبه الناس به سمتًا وهديًا)[1].

وهكذا يتربىٰ أهل الإسلام علىٰ أدب المدينة في أصقاع الأرض، ويبنون بهذا الأدب والسمت عمود حضارتهم، ثم لا نعجب بعد ذلك حين نعلم أنَّ بلدانًا وأقاليم في أطراف من الأرض دخلت الإسلام بمجرد معايشتها لأهل الإسلام الذين وفدوا إليها بغرض التجارة والاكتساب.

إنها شريعة المكارم التي قال رسول الله ﷺ فيها: «إنما بُعثت لأتمم صالح الأخلاق»[2]. والحديث واضح في كون الآداب الفاضلة مقصداً محوريًا في البعثة النبوية، إذ لا تجمل الديانة بدونها، قالت عائشة رضي الله عنها: (مكارم الأخلاق: صدق الحديث، وصدق الناس، وإعطاء السائل، والمكافأة، وحفظ الأمانة، وصلة الرحم، والتذمم للصاحب، وقرىٰ الضيف. والحياء رأسها، وقد تكون مكارم

---

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٥.

(٢) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ١٨٢ (ترتيب الشامي).

الأخلاق في الرجل ولا تكون في ابنه، وتكون في ابنه ولا تكون فيه، وقد تكون في العبد ولا تكون في سيده، يقسمها الله لمن أحب)[1].

ألا تستحق هذه المكارم أنْ تكون سمة شباب الإسلام!؟

ألا يحسن أنْ تكون المروءات أساساً يبنىٰ في الحضارات قبل اللوائح والأنظمة!؟

أوَّلُ الآداب

لقد أَلِف الناس أنْ يكون أول خطاب زعامي يلقيه الرؤساء والملوك ذا أهمية بالغة، إذ يرسم هذا الخطاب الخطوط العريضة للمنهج والطريقة والسياسة والسيرة، وقد حفظتْ كتب التاريخ والوثائق خطابات كثير من الحكام والولاة والملوك والزعماء، فيا ترىٰ ما أول خطاب ألقاه نبينا ﷺ حين دخل المدينة النبوية، والتقىٰ بالناس؟ وما الخطوط العريضة التي رسم بها صورة الشريعة التي بُعث من أجلها، وهاجر إلىٰ المدينة من أجلها؟ دعونا نتعرف علىٰ ذلك من مصادرنا الأصيلة.

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال: «لما قدِم رسول الله ﷺ المدينة انجفلَ الناسُ إليه، وقيل: قدِم رسول الله ﷺ. فجئتُ في الناس لأنظر

(١) التمهيد لابن عبد البر ٢٤/ ٣٣٤.

إليه، فلما استبنتُ وجه رسول الله ﷺ عرفت أنَّ وجهه ليس بوجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: «يا أيها الناس! أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا والناس نيام؛ تدخلون الجنة بسلام»»[1].

هذا أول خطاب للنبي ﷺ في المدينة حين التصقت المناكب بعضها ببعض ازدحاماً عنده، والنفوس متلهفة إلىٰ سماع أول كلمة يتفوه بها ﷺ. لقد كان أول ما وجَّه إليه في حديثه إفشاء السلام!

وإنه ليتملكك العجب أنْ يكون ذلك أول أدب يدعو إليه نبينا ﷺ من أدب المدينة، ثم يتملكك العجب مرة أخرىٰ تساهل الناس اليوم في هذا الأدب العالي، والزهد فيه، وعدِّه في الثانويات!.

وفي الحديث الآخر قال ﷺ: «لا تدخلون الجنة حتىٰ تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتىٰ تحابوا، أولا أدلكم علىٰ شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم»[2]. وتأمل تسلسل المقدمات والنتائج، وكيف جعل إفشاء السلام مؤدياً إلىٰ التحاب بين الناس، وجعل التحاب بين الناس مؤدياً إلىٰ حقيقة الإيمان، وجعل حقيقة الإيمان مؤدية إلىٰ دخول الجنة، وكأن طريق الجنة يبدأ من قول: السلام عليكم!.

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/ ٦٥٢ أبواب صفة القيامة والرقائق والورع ح٢٤٨٥.

(٢) أخرجه مسلم ١/ ٧٤ كتاب الإيمان، باب بيان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأن محبة المؤمنين من الإيمان، وأن إفشاء السلام سبب لحصولها ح٩٣.

قال النووي رحمه الله تعالىٰ: (السلام أول أسباب التآلف، ومفتاح استجلاب المودة، وفي إفشائه تمكن ألفة المسلمين بعضهم لبعض، وإظهار شعارهم المميز لهم من غيرهم من أهل الملل، مع ما فيه من رياضة النفس، ولزوم التواضع، وإعظام حرمات المسلمين، وقد ذكر البخاري رحمه الله في صحيحه[1] عن عمار بن ياسر ﷺ أنه قال: ثلاثٌ من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار. وروىٰ غير البخاري هذا الكلام مرفوعـًا إلىٰ النبي ﷺ. وبذلُ السلام للعالم، والسلام علىٰ من عرفت ومن لم تعرف، وإفشاء السلام كلها بمعنىٰ واحد، وفيها لطيفة أخرىٰ، وهي أنها تتضمن رفع التقاطع والتهاجر والشحناء وفساد ذات البين التي هي الحالقة، وأن سلامه لله لا يتبع فيه هواه، ولا يخص أصحابه وأحبابه به، والله سبحانه وتعالىٰ أعلم بالصواب)[2].

إننا مطالبون اليوم بتربية الشباب والناشئة علىٰ إفشاء السلام، وبذله للعالم، بكل أدبياته المعروفة، لا سيما وقد تعددت التحايا الوافدة من خارج (المدينة) واستعذبتها بعض الأفواه والأقلام. وقد كثر التقاء الناس اليوم بعضهم ببعض، في المساجد والطرقات والأسواق والمجامع، وفي الشبكات ووسائل الاتصال المتنوعة،

---

(١) ١/ ٢٥ كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام.
(٢) شرح مسلم ٢/ ٣٦.

وإنَّ إفشاء السلام فيها مطلب شرعي. عن الطفيل بن أُبَيٍّ بن كعب رحمه الله تعالىٰ، أنه كان يأتي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، فيغدو معه إلىٰ السوق، قال: (فإذا غدونا إلىٰ السوق لم يمر عبد الله بن عمر علىٰ سَقاطٍ، ولا صاحب بيعة، ولا مسكين، ولا أحد إلا سلَّم عليه. قال: فجئت عبد الله بن عمر يومـًا فاستتبعني إلىٰ السوق، فقلت له: ما تصنع بالسوق! وأنت لا تقف علىٰ البيع، ولا تسأل عن السلع، ولا تسوم بها، ولا تجلس في مجالس السوق؟ وأقول: اجلس بنا ههنا نتحدث. فقال: يا أبا بطن - وكان الطفيل ذا بطن - **إنما** نغدو من أجل السلام، نسلِّم علىٰ من لقينا)[1].

إنَّ التربية علىٰ إفشاء السلام نقطة الانطلاق نحو أدب المدينة.

* * *

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٢/ ٩٦١ كتاب السلام، باب جامع السلام.

اللبنة الأولى

عن عطاء الخراساني قال: قالت امرأة سعيد بن المسيب: (ما كنا نكلمُ أزواجَنا إلا كما تكلمون أمراءكم: أصلحك الله، عافاك الله)[1].

وامرأة سعيد بن المسيب هي أم حبيبٍ الدوسية بنت الصحابي الجليل الملازم للنبي ﷺ أبي هريرة رضي الله عنه[2].

ولا غرابة أنْ تتحلىٰ بكل هذا الأدب الزوجي، فهي البنت الصالحة التي تربت تربية إسلامية قويمة، سواء أكانت تلقتها علىٰ يد والديها الكريمين، أم تلقتها علىٰ يد زوجها سيد التابعين سعيد بن المسيب رحمه الله تعالىٰ.

وبهذه الكلمات القليلة أوجزت هذه المرأة الفاضلة التعريف الصحيح لـ(الزوج)، ورفعتْ من شأنه، وجعلته سيداً وأميراً، دون أنْ تنتقص من شأنها (زوجةً) من خلال صورة واحدة من صور التعامل الزوجي ذي الدلالة العميقة علىٰ هذا التعريف.

---

(١) حلية الأولياء ٥/ ١٩٨.

(٢) الطبقات الكبرىٰ ٧/ ١١٩.

وتعريف الزوج بالسيد والأمير تعريفٌ مخصص للزوجة والأسرة والبيت، أيْ أنَّ كل زوج في الرؤية الإسلامية هو أمير وسيد في بيته وأسرته وعلىٰ زوجته وبنيه، وهو تعريف مُستقىٰ أساسًا من هدي القرآن الكريم، فإنَّ الله عز وجل نعت الزوج بالسيد في سياق قصة يوسف عليه السلام، قال الله تعالىٰ: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾ [يوسف:٢٥]، قال المفسرون: السيد الزوج[١]. وقال محمد رشيد رضا: (وكان النساء في مصر يُلقبن الزوج بالسيد، واستمر هذا إلىٰ زماننا)[٢]. وقال ابن عاشور: (والظاهر أنه لم يكن ذلك مستعملاً في عادة العرب، فالتعبير به هنا من دقائق التاريخ)[٣]. وبهذا يتبين لك أنه أدبٌ زوجي أراد القرآن الكريم تعليمه نساء المسلمين، فتعلمنه وترجمنه واقعًا في حياتهم، كما أفادت أم حبيب رحمها الله تعالىٰ في الأثر الآنف الذكر، ولذلك كانت الفقيهة التابعية أم الدرداء، زوجة الصحابي الجليل أبي الدرداء ﷺ، إذا حدَّثتْ عن زوجها قالت: (حدثني سيدي)[٤].

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ١٠٢.

(٢) تفسير المنار ١٢/ ٢٣٦.

(٣) التحرير والتنوير ١٢/ ٢٥٦.

(٤) صحيح مسلم ٤/ ٢٠٩٤ كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب ح٢٧٣٢.

وفي واقع الأمر أنَّ هذا الأدب ليس مقتصراً علىٰ طريقة النداء والتخاطب والتواصل فحسب، بل هو انعكاس لخضوع المرأة الحقيقي لزوجها، ولذلك تخاطبه كما يخاطَب الأمراء والأسياد، قال محيي الدين بن أحمد: (كانت تقول المرأة لبعلها: يا سيدي؛ لملكة التصرف فيها)[1].

وهذا الخضوع يقابله عطف الزوج ورحمته وتحمله للمسؤولية الزوجية والأسرية علىٰ أحسن الوجوه، فهو خضوع راقٍ مبناه علىٰ الحب المتبادل بين الزوجين، وهو خضوع يوافق فطرة المرأة التي فطرها الله عليها، إذ تتطلع المرأة دومًا إلىٰ رجل يأمرها وينهاها، ويقوم علىٰ مصالحها، وتعيش في ظل سيادته؛ إنها فطرة القوامة، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ﴾ [النساء:٣٤]، قال ابن عباس: (أمراء، عليها أن تطيعه فيما أمرها الله به من طاعته)[2].

الحديث عن مفهوم القوامة والسيادة، وما يقابله من الخضوع طويل ومتشعب، وإنما أردت الإشارة إلىٰ هذا المفهوم الذي انحسر اليوم في تصورات المسلمين والمسلمات إلىٰ أنْ أصبح غريبًا مستنكراً، وعليه؛ فإنَّ واجب التربية اليوم الاعتناء بهذا المفهوم، وتربية البنات

(١) إعراب القرآن وبيانه ٤/ ٤٧٤.
(٢) تفسير الطبري ٦/ ٦٨٧.

عليه، وتأهيلهن لأنْ يكنَّ زوجات صالحات بالمفهوم القرآني، وهو الذي يعني صالحات لأزواجهن، طائعات مقصورات عليهم.

توريث الآداب الزوجية

لم يكن حديث أم حبيب عن أدب التواصل مع الأزواج بدعًا مبتكراً، ولا فلتة عابرة، وإنما هي الآداب الإسلامية يتوارثها الفضلاء جيلاً بعد جيل، وإذا كانت بنت أبي هريرة ﷺ بهذا الأدب، فكيف كانت تربيتها لبنتها؟

قال كثير بن المطلب بن أبي وداعة: (كنت أجالس سعيد بن المسيب، ففقدني أياماً، فلما جئته، قال: أين كنت؟ قلت: توفيت أهلي، فاشتغلت بها. فقال: ألا أخبرتنا، فشهدناها. ثم قال: هل استحدثت امرأة؟ فقلت: يرحمك الله، ومن يزوجني وما أملك إلا درهمين أو ثلاثة؟ قال: أنا. فقلت: وتفعل؟ قال: نعم. ثم تحمد، وصلىٰ علىٰ النبي ﷺ وزوجني علىٰ درهمين - أو قال: ثلاثة - **فقمت، وما أدري ما أصنع من الفرح، فصرت إلىٰ منزلي، وجعلت أتفكر فيمن أستدين**. فصليت المغرب، ورجعت إلىٰ منزلي، وكنت وحدي صائماً، فقدمت عشائي أفطر، وكان خبزاً وزيتاً، فإذا بابي يقرع. فقلت: من هذا؟ فقال: سعيد. ففكرت في كل من اسمه سعيد إلا ابن المسيب، فإنه لم ير أربعين سنة إلا بين بيته والمسجد،

فخرجت، فإذا سعيد، فظننت أنه قد بدا له. فقلت: يا أبا محمد، ألا أرسلت إلي فآتيك؟ قال: لا، أنت أحق أن تؤتىٰ، إنك كنت رجلاً عزبـًا، فتزوجت، فكرهت أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك. فإذا هي قائمة من خلفه في طوله، ثم أخذ بيدها، فدفعها في الباب، ورد الباب. فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم وضعت القصعة في ظل السراج لكي لا تراه، ثم صعدت السطح، فرميت الجيران، فجاؤوني، فقالوا: ما شأنك؟ فأخبرتهم، ونزلوا إليها، وبلغ أمي، فجاءت، وقالت: وجهي من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها إلىٰ ثلاثة أيام. فأقمت ثلاثـًا، ثم دخلت بها، فإذا هي من أجمل الناس، وأحفظ الناس لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ، وأعرفهم بحق زوج. فمكثت شهراً لا آتي سعيد بن المسيب، ثم أتيته وهو في حلقته، فسلمت، فرد علي السلام، ولم يكلمني حتىٰ تقوض المجلس. فلما لم يبق غيري، قال: ما حال ذلك الإنسان؟ قلت: خير يا أبا محمد، علىٰ ما يحب الصديق، ويكره العدو. قال: إن رابك شيء، فالعصا. فانصرفت إلىٰ منزلي، فوجه إليَّ بعشرين ألف درهم)[1].

لقد وجد هذا الرجل زوجته من أحفظ الناس للقرآن، وأعلمهم بالسنة، وأعرفهم بحق الزوج علىٰ زوجته، فهي لم تتزوج حتىٰ

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٣٤.

صارت أهلاً للزواج، بما تربت عليه وبما تعلمته. ولم يقتصر والدها علىٰ ذلك، بل هو يتابع شأنها بعد الزواج، اهتماماً ورعاية وعطفاً، وإنك لتلمس في طيات هذه القصة ما يكمن خلف أفعال سعيد بن المسيب من أفكار وتصورات.

ألا تستحق فتياتنا أنْ يكون تأهيلهن للزواج وفق صياغة جديدة، تجمع بين أصالة المفاهيم وحداثة التقنيات أولوية في برامجنا التربوية!؟

ألا تستحق فتياتنا أنْ تعقد لهم البرامج التربوية التي تعزز أنوثتهن، وتحافظ علىٰ جاذبيتهن، وتُبقي علىٰ معدنهن، وتصقل شخصياتهن الحقيقية، وتثوِّر قدراتهن الطبيعية فيما ينفعهن ويخدم أسرهن وأولادهن!؟

ألا تستحق فتياتنا أنْ ترسم لهنَّ خطة قيمية، تعاد لهن فيها غراس الحياء، وأسوار الاستعفاف، ولوحات التبعُّل الجميلة.. خطة تصنع فيهن شموخ الفضائل وبناء المكارم!؟

إنَّ واجب التربية اليوم لفتياتنا هو إعادة النظر في البرامج التربوية المقدمة للفتيات، والتي يغلب عليها تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم الشريعة علىٰ حساب تعزيز الأنوثة، وصقل الشخصية، وتنمية التواصل، والخروج بتوصيات إبداعية تعدل بين كل هذه المضامين التربوية في ميزان تربوي علمي.

إنَّ النظر إلىٰ شخصية الفتاة باعتباره محوراً تربوياً هو أصل في التصور الإسلامي، وبقدر ابتعادنا عن تنمية شخصيتها يكون ابتعادنا عن الأصل.

الثقافة الوافدة

لم ينحسر التصور الإسلامي الصحيح للحياة الزوجية عفواً، وإنما انحسر بفضل الثقافة الغربية الوافدة الممنهجة، التي جعلت الزوجة شريكةً والزوج شريكاً، وهو مفهوم مستقىً من المادية الرأسمالية المبنية علىٰ تبادل المصالح المادية، والتي تجعل الزوجة كياناً مستقلاً منفصلاً عن الزوج، بينما الإسلام جعلها جزءاً من الزوج، قال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩]. وقد وفدت هذه الثقافة الدخيلة عبر أربع بوابات:

الأولىٰ: المسلسلات الأجنبية التي يغلب عليها العرض الاجتماعي وفق النظرية الغربية للعلاقة الزوجية.

الثانية: الكتب الأجنبية المترجمة في باب التنمية الأسرية والعلاقة الزوجية، والمبنية علىٰ النظريات الاجتماعية الغربية.

الثالثة: كتب الروايات الأجنبية التي تحكي الواقع الغربي الاجتماعي.

الرابعة: الدورات التدريبية في التنمية الأسرية والتأهيل الزواجي، والتي يغلب عليها اليوم عدم السلامة من اللوثة الغربية في تفسير الزواج، وما ينتج عن هذا التفسير من لوازم.

كل هذه البوابات لا تزال مشرعة أمام فتياتنا، وهنَّ يستقين منها – بقصد أو بغير قصد – ثقافتهن الزوجية وتفسيرهن لمفاهيم الزواج، بينما لا تزال محاضننا التربوية تقدم التصور الإسلامي للزواج بضعف: ضعفٍ في التصور، وضعفٍ في العرض.

أما ضعف التصور، فإنه أذهلني قصور مفاهيم الزواج لدىٰ العديد من المربيات والمعلمات، وهذا يتطلب تأهيلاً وتحسيناً لهن علىٰ هذه المفاهيم.

وأما ضعف العرض، فلا تزال المحاضن التربوية تجعل من شأن الزواج شأناً متخصصاً يعزىٰ إلىٰ جهات محددة أو أسماء محددة فقط، بينما هو يمثل محوراً من محاور تربية البنات، وبالتالي فإن تقديم مفاهيم الزواج تظهر بشكل باهت، وفي برامج ضعيفة القوالب. وعلىٰ أية حال فالمسألة فيها نظر!.

يتوجب اليوم علىٰ محاضن التربية أنْ ترفع من مستوىٰ أدائها لتكون قادرة علىٰ سدِّ هذه الفجوة الثقافية، لا بالتذكير والوعظ فقط، وإنما باستحداث أجود التقنيات التربوية، وأقدرها علىٰ إنتاج فتيات صالحات.

المشكلات الزوجية

تمثل المشكلات الزوجية إحدىٰ الظواهر الموجودة في الحياة الزوجية، شئنا أمْ أبينا، إذ تتكرر في أغلب البيوت، ولو سلم منها بيتٌ لسلم منها بيت النبي ﷺ، وقصة الإيلاء مشهورة، وبالتالي فهي نمط يلزمه فقهٌ وتدريب وثقافة. وهي بهذا التوصيف لا تمثل خطراً أو مهدداً لكيان الأسرة لكونها في السياق الطبيعي، وكانت ولا تزال بيوت الناس هكذا.

إنما تكمن خطورة المشكلات الزوجية في الثقافة التي تؤسس للممارسات الخاطئة في أثناء حدوث هذه المشكلات، وفي الخلاف الذي انبعثت منه هذه المشكلات.

كما أسهمت الثقافة الزوجية الوافدة في ذيوع تصورات خاطئة، وشجعت علىٰ ممارسات خطيرة في هذه المسألة، ليس هذا مقام بسطها، وإنما الإشارة إليها.

وواجب التربية اليوم تنقيح التصورات الخاطئة المتعلقة بالمشكلات الزوجية أولاً، ثم الاهتداء بالترجمة السلفية العملية لهذه التصورات، فإنَّ سلفنا الصالح استطاعوا - رغم وجود المهددات - أنْ يحافظوا علىٰ كياناتهم الزوجية، وأنْ يجعلوا منها نماذج اقتداء واهتداء، وهذا واضح معلوم منثور في كتب التفسير والحديث والتراجم والطبقات.

إنَّ صناعة زوجة صالحة وفق مفهوم القرآن الكريم هو اللبنة الأولىٰ في تأسيس مجتمع مسلم، وإنَّ هذا الـمُخرج التربوي مما تثنىٰ به الخناصر حين تُعدَّد المخرجات التربوية في تربية البنات.

* * *

البر ثمرة التربية

قال ابن النجار: (قرأتُ بخط مَعْمَر بن الفاخر في معجمه: أخبرني أبو القاسم الحافظ إملاءً بمنىٰ، وكان من أحفظ من رأيت، وكان شيخنا إسماعيل بن محمد الإمام يفضله علىٰ جميع من لقيناهم، قدِم أصبهان ونزل في داري، وما رأيت شاباً أحفظ ولا أوْرَع ولا أتقن منه، وكان فقيها أديباً سنياً، سألته عن تأخره عن الرحلة إلىٰ أصبهان؟ قال: استأذنْتُ أمي في الرحلة إليها، فما أذنت)[1].

والحافظ أبو القاسم هو ابن عساكر صاحب التاريخ المشهور، كان ظاهرة علمية في القرن السادس الهجري، إذ بدأ سماع الحديث سنة (٥٠٥هـ)، وعمره ست سنوات، قال ابن خلكان رحمه الله تعالىٰ: (غلب عليه الحديث فاشتهر به، وبالغ في طلبه إلىٰ أن جمع منه ما لم يتفق لغيره، ورحل وطوف وجاب البلاد، ولقي المشايخ)[2]. وقال ابن كثير رحمه الله تعالىٰ: (فخر الشافعية، وإمام أهل الحديث في زمانه، وحامل لوائهم صاحب تاريخ دمشق، وغير ذلك من المصنفات المفيدة المشهورة). وقال: (سمع بنفسه بدمشق من جماعة، ثم رحل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٦٧.
(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٣٠٩.

إلىٰ بغداد سنة عشرين، وحج منها سنة إحدىٰ وعشرين، وسمع بمكة، وعاد إليها فأقام بها خمس سنين يشتغل ويحصل ويسمع ويتفقه بالنظامية، ويعلق مسائل الخلاف علىٰ أبي سعد إسماعيل بن أبي صالح المؤذن، ثم رجع بعلم جم، وسماعات كثيرة، ثم عاد إلىٰ الرحلة في سنة تسع وعشرين إلىٰ خراسان وأصبهان وغيرهما من البلدان، وبقي نحو أربع سنين، ورجع بكتب عظيمة ومسندات وسنن وأجزاء كثيرة، وبعد تلك السنين رجع وقد سمع من مشايخ كبار وصغار نحواً من ألف وثلاث مئة شيخ وثمانين امرأةً ونيفٍ)[1]. وكان له فضل في جلب كتب الإسلام المشهورة إلىٰ الشام، كمسند الإمام أحمد، ومسند أبي يعلىٰ الموصلي؛ رحمهما الله تعالىٰ[2].

كانت الرحلة في طلب الحديث ركيزة من ركائز الطلب، والمتخلف عنها يقل حظه من العلم بقدر تخلفه عنها، وأنت تلحظ انقطاعاً بين رحلة ابن عساكر إلىٰ بغداد ورحلته إلىٰ أصبهان. هذا الانقطاع كان بسبب عدم إذن أمه له في الرحلة إليها آنذاك، ورغم علمه بتأثير تأخره عن الرحلة في سبيل طلب العلم وحرصه علىٰ التعلم، إلا أنه آثر طاعة أمه علىٰ ذلك.

---

(١) طبقات الشافعيين ١/ ٦٩٣.

(٢) المصدر السابق ١/ ٦٩٣.

تأخُّر بأجر عبادة

كان أبو القاسم ابن عساكر فقيهاً كما كان محدثاً، وإنما غلبت شهرته الحديثية عليه، وعلىٰ أية حال فقد نصب ميزان المفاضلة بين عبادة الرحلة في طلب العلم وعبادة طاعة الأم، فغلبت عنده عبادة طاعة الأم، فآثر تأخير رحلته إلىٰ أصبهان وطاعة أمه التي لم تأذن له، وبذلك يكون محتسباً أجر تأخره عن هذه الرحلة طاعة لله، ثم لأمه، كما يحتسب طلاب العلم رحلاتهم المضنية المجهدة ذات العنت والتغريب والأسفار. وإنما سقت هذه القصة بالذات لدلالتها التربوية في عظم حق الوالدين علىٰ أبنائهم؛ المنشغلين بالتعلُّم والتعليم، حيث يتكرر كثيراً ازدحام مصلحتي بر الوالدين وإجراءات التعلُّم والتعليم والتربية. وهي من دقائق المسائل التي تترك أثراً تربوياً عميقاً في نفوس البنين والبنات من خلال المعالجات الموقفية لهذه القضايا.

لم يكن أبو القاسم ابن عساكر فريداً في هذه المفاضلة وتغليب عبادة البر بوالديه أو أحدهما، فقد كان سلفنا الصالح علىٰ درجة عالية من البر لوالديهم، وتقديم طاعتهم علىٰ كثير من إجراءات التعلم، فهذا الإمام الرباني، الحافظ المتقن – كما يصفه الذهبي – رحمه الله تعالىٰ – أحمد بن علي الأبَّار، استأذن أمه في الرحلة إلىٰ قتيبة، فلم تأذن له، ثم ماتت، فخرج إلىٰ خراسان، ثم وصل إلىٰ بلخ وقد مات قتيبة، فكانوا

يعزُّونه علىٰ هذا، فقال: هذا ثمرة العلم، إني اخترت رضىٰ الوالدة[1].

لقد فات علىٰ الأبّار السماع من قتيبة، وقتيبة هذا كان قِبلةً لأهل الحديث، يُيمِّمُون رحالهم شطره، فرأىٰ أصحاب الأبَّار أنْ يعزُّوه ويسلوه في مصابه هذا، لكنه أجابهم بلغة الفقيه، وأعلمَهم أنَّ مثل هذه المواقف يتبين فيها أثر العلم وثمرة التربية، فيقيم ميزان المفاضلة الشرعية، فتفوز كفة بر الوالدة علىٰ السماع من قتيبة؛ ولو فات ومات، وكأنه يقول لهم: إذا لم أُمتحَن ببر الوالدة في مثل هذا الموقف فمتىٰ يكون؟ وإذا لم يرَ الله تعالىٰ مني الطاعة مع فوات الفضائل التي أبغيها وأرجو أنْ تنفعني؛ فمتىٰ أُريه؟

وهذا والله هو الفقه!.

ولقد بارك الله تعالىٰ لهم في أوقاتهم وأعمارهم وتعلمهم وتعليمهم رغم فوات جزء من ذلك بسبب طاعة الوالدين أو أحدهما، قال عبد الله بن جعفر بن خاقان المروزي: (سمعت بنداراً يقول: أردت الخروج - يعني: الرحلة - فمنعتني أمي، فأطعتها، فبورك لي فيه). قال الذهبي: (وجمع حديث البصرة، ولم يرحل، براً بأمه، ثم رحل بعدها). فبارك الله علمه فأصبح (راوية الإسلام) كما يصفه الذهبي، روىٰ عنه البخاري ومسلم والأربعة وغيرهم من أئمة الحديث[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٣/ ٤٤٣.

(٢) انظر سير أعلام النبلاء ١٢/ ١٤٤-١٤٥.

وقال الحسن بن سفيان: (إنما فاتني يحيىٰ بن يحيىٰ بالوالدة؛ لم تدعني أخرج إليه، فعوضني الله بأبي خالد الفرَّاء، وكان أسند من يحيىٰ بن يحيىٰ)[1].

هذا ما ينبغي علىٰ المعلمين والمربين أنْ يعلموه طلابهم: إنَّ طاعة الوالدين لا يفوت معها شيء من النفل والفضل، وإنما تحصل بها البركة والعوض في الدنيا، والأجر والثواب في الآخرة.

درس التوحيد

لقد قرن الله تعالىٰ بر الوالدين بتوحيده في كتابه في غير موضع، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة:٨٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [النساء:٣٦]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الأنعام:١٥١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

ولعلَّ من أسرار هذا الاقتران، وهو إحدىٰ الحكم في الإعلاء من شأن الإحسان إلىٰ الوالدين: أنه مفضٍ إلىٰ تجريد التوحيد في قلب الولد، إذ كثيراً ما تتعارض أهواء القلب ومحبوباته ومراداته

---

(١) المصدر السابق ١٤/ ١٥٨.

مع الانشغال ببر الوالدين، فإذا غلَّب الولد جانب البر علىٰ أهوائه ومحبوباته ومراداته دون مكاسب آنية أو مادية يتحصل عليها، ولم يفعل ذلك إلا لِما ترسخ في قلبه من عِظم حق الوالد عليه وأنه من رضا الله تعالىٰ؛ تطهر قلبه وخلص لله تعالىٰ، وأصبح قلباً سليماً خالياً إلا من محبوبات الله تعالىٰ ومراضيه؛ وهذه حقيقة التوحيد وجوهره ولبه وخلاصته، فإذا كان كذلك استنار قلبه بأنوار التوحيد، وتنزلت عليه شآبيب الرضا الإلهي، وأزهرت فيه مرابع البركات.

وهذا - والله أعلم - ما جعل القرآن المكي يؤكد في أحلك ظروف الصراع بين المؤمنين والمشركين من قريش علىٰ مسألة بر الوالدين، إذ يعاني شباب الدعوة حينها من هجر والديهم وقسوتهم عليهم، وربما تعذيبهم ليردوهم عن دينهم، فتتنزل الآيات الكريمة موصية بحق الوالدين، وانظر - دليلاً علىٰ ذلك - سورة العنكبوت التي افتتحت بالحديث عن الابتلاء، والتي نزلت في أواخر العهد المكي حيث بلغ الصراع أوجه، فقد أتبعت الحديث عن الابتلاء بالوصية بالوالدين، قال الله تعالىٰ: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت:٨]، هنا يتجلىٰ الأثر التربوي لهذه الوصية، إذ يحسن الأبناء إلىٰ والديهم رغم اختلاف الدين، ورغم المعاناة؛ طاعة لله وحده.. تربية علىٰ التجرد والإخلاص.

معصية لا عقوق فيها

ما أوردته من آثار سلفنا الصالح المبارك لا يعني ترك التعلُّم أو ترك التعليم والتربية لأجل طاعة الوالدين أو أحدهما، وإنما ترك إجراء من الإجراءات، أو منشط من المناشط لأجل طاعتهما أو أحدهما، ولا يزال أصل التعلم والتعليم واجبًا دائمًا، وممكنًا كذلك. أقول هذا حتىٰ لا يلتبس الأمر، وعلىٰ هذا كان سلفنا الصالح. فهم يمتنعون من إجراء أو منشط ما، لتعارض هذا الإجراء والمنشط مع طاعة الوالدين أو أحدهما، ولم يمتنعوا من أصل المسألة.

إنَّ بر الوالدين لا يقتضي عبادتهما، وإنما طاعتهما في المعروف، ولذلك قال الله تعالىٰ وهو يوصي بالإحسان إليهما: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [العنكبوت:٨].

هناك أمور تصح فيها معصيتهما، كالأمر بالشرك والمعاصي وترك الفرائض.

وهناك أمور ربما صحَّت فيها معصيتهما غير ذلك؛ لكنها تفتقر إلىٰ فتوىٰ الفقيه، وحدَّة نظر المجتهد لا المجازفة، لأنَّ معصيتهما في هذه الأحوال ستفضي غالبًا إلىٰ غضبهما، وغضبهما إنْ لم يكن لك عذر شرعي حقيقي فيه؛ فإنه مؤذن بغضب الله تعالىٰ ومقته، وإنما نحن نفرُّ من غضب الله تعالىٰ ومقته.

سئل عطاء عن رجل له أمٌّ وامرأة، والأم لا ترضىٰ إلا بطلاق امرأته؛ قال: ليتق الله في أمه وليصِلها. قال الرجل: أيفارق امرأته؟ قال عطاء: لا؛ قال الرجل: فإنها لا ترضىٰ إلا بذلك؛ قال عطاء: فلا أرضاها الله، امرأته بيده إنْ طلقها فلا حرج، وإنْ حبسها فلا حرج. وسئل الحسن عن رجل أمَرَته أمه أن يطلق امرأته؟ قال الحسن: ليس الطلاق من برها في شيء[1].

هذا لا يتنافىٰ مع ما ورد عن ابن عمر ﷺ قال: «كانت تحتي امرأة أحبها، وكان أبي يكرهها، فأمرني أبي أنْ أطلقها، فأبيتُ، فذكرت ذلك للنبي ﷺ، فقال: «يا عبد الله بن عمر، طلق امرأتك»»[2]. إذِ الْحال المعروفة لدىٰ المفتي والمجتهد عن جودة رأي الوالد أو الوالدة، وحقيقة حال الزوجة هي المعيار الأقوىٰ في الحكم بطاعتهما أو معصيتهما.

ولذا فإنَّ علىٰ المعلمين والمربين أنْ يتفطنوا لهذه المسائل التي تعرض لهم بين الفينة والأخرىٰ، فربما اضطرب فيها الرأي بين الطاعة والمعصية، وأنْ يجعلوا التجرد وطلب الحق هو غرضهم وهدفهم في توجيه الأبناء حينها.

---

(١) البر والصلة، ص٣١.

(٢) أخرجه الترمذي في السنن ٣/ ٤٩٤ كتاب الطلاق، باب ما جاء في الرجل يسأله أبوه أن يطلق زوجته ح١١٨٩.

ويجب التنبيه إلىٰ ما أوصت به الآيات في حين معصيتهما، من ذلك: صحبتهما بالمعروف، ومنه إجلالهما واحترامهما؛ ولو بلغوا ما بلغوا من البعد عن دين الله تعالىٰ، قال الله تعالىٰ: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗا﴾ [لقمان:١٥]، ومن ذلك: التوبة والاستغفار بعد معصيتهما المشروعة، قال الله تعالىٰ: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا﴾ [الإسراء:٢٥]، قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالىٰ: (هو الرجل تكون منه البادرة إلىٰ أبويه، وفي نيته وقلبه أنه لا يؤخذ به - وفي رواية: لا يريد إلا الخير بذلك)[١].

هذا هو سموُّ التربية وألقُها.

والبر هو ثمرة التربية الأخلاقية، ومعيار نجاحها، قال يونس بن عبيد: (كانوا يرجون للرَّهِقِ بالبرِّ الجنةَ، ويخافون علىٰ المتألِّهِ بالعقوقِ النار)[٢].

والرهِقُ هو من يغشىٰ المحارم وتخف نفسه إليها، وتخف إلىٰ الجهالة والرعونة والخُبث، والمتألِّهُ الطائع لله المخبت المتنسك.

والمعنىٰ أنهم كانوا يعدُّون برَّ الوالدين حسنة لا يغلبها في الميزان غشيان المحارم، وأنَّ عقوق الوالدين سيئة لا يغلبها في الميزان كثرة

---

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ٦٧.

(٢) مكارم الأخلاق لابن أبي الدنيا، ص٧٢.

الطاعات، وأنهم كانوا يرجون لمن عُرف بالمعصية أنْ يتغمده الله برحمته ويدخله الجنة إذا كان باراً بوالديه، ويخشون علىٰ من عُرف بالاستقامة والتعبد والتألُّه أنْ يعاقبه الله ويسخط عليه ويدخله نار جهنم إذا كان عاقّـًا لهما.

ويونس بن عبيد من التابعين الأخيار، قال عنه الذهبي: (الإمام القدوة الحجة)، ونقل عن ابن سعد قوله: (كان ثقة كثير الحديث)[1]، وهو يحكي عمن عاصرهم وعمن سبقوه، وحكايته هذه تعدُّ خلاصة شرعية مهمة، تجعل مسألة برِّ الوالدين ركيزة تربوية، وأخلاقـًا عملية، تصح أنْ تكون مؤشراً علىٰ صلاح الإنسان وفساده.

وكما تدل مسألة البر علىٰ الصلاح والفساد، فكذلك تدلُّ توجيهات المربين والمربيات للطلاب والطالبات - حيال مواقفهم مع الآباء والأمهات - علىٰ وضوح التصورات التربوية لديهم.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٨٨.

التربية الفردية

عقدان من الزمان كان يقضيها المسلم الجديد في دعوة رسول الله ﷺ كانت كافية في تشكيله شخصية جديدة فريدة، شخصية تنتقل من قائمة الصفر إلىٰ قائمة الأرقام الصعبة، وعلىٰ هذا كان أصحاب رسول الله ﷺ الذين لزموه، وأحاطوا به، وجلسوا إليه، وجاهدوا معه، واتبعوا النور الذي أنزل معه.

لكن أبا هريرة ﷺ لم يكن كذلك، فلم يثنِ ركبتيه في دار الأرقم، ولم يرفع سيفه في غزوة بدر، ولم يبلغ قلبُه الحنجرةَ في الخندق، ولم يُلبِّ محرمًا عام الحديبية! حيث لم يقدم إلىٰ المدينة مهاجراً إلا عام خيبر، أي قبل وفاته ﷺ بأربعة أعوام، فكيف استطاع أنْ يتقدم في وقتٍ متأخر؟ وكيف أصبح من أعلام الصحابة في فترة وجيزة؟

أجاب هو عن ذلك، فقال: (قدمتُ ورسول اللَّه ﷺ بخيبر، وأنا يومئذٍ قد زدت علىٰ الثلاثين، فأقمتُ معه حتىٰ مات، أدور معه في بيوت نسائه وأخدمه وأغزو معه وأحجُّ، فكنت أعلمَ الناس بحديثه. وقد واللَّه سبقني قوم بصحبته؛ فكانوا يعرفون لزومي له فيسألونني عن حديثه، منهم: عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير، ولا واللَّه

لا يخفىٰ عليَّ كلُّ حديثٍ كان بالمدينة، وكلُّ من كانت له من رسول اللَّه ﷺ منزلة، ومن أخرجه من المدينة أن يساكنه)[1].

وفي سياقٍ آخر قال: (إنكم تقولون: إنَّ أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ﷺ وتقولون: ما للمهاجرين والأنصار لا يحدِّثون مثله؟ وإنَّ إخواني المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وكان إخواني من الأنصار يشغلهم عملُ أموالهم، وكنت امرأً مسكينًا من مساكين الصُّفَّة، ألزمُ رسول الله ﷺ علىٰ ملء بطني، فأَحضرُ حين يغيبون، وأعي حين ينسون، وقد قال رسول الله ﷺ في حديث يحدثه يومًا: «إنه لن يبسط أحد ثوبه حتىٰ أقضي جميع مقالتي؛ ثم يجمع إليه ثوبه إلا وعىٰ ما أقول». فبسطتُ نمرةً علي، حتىٰ إذا قضىٰ مقالته، جمعتها إلىٰ صدري، فما نسيت من مقالة رسول الله ﷺ تلك من شيء»[2].

لقد بلغ أبو هريرة في العلم والرواية مبلغًا كبيراً، حيث بلغ عدد أصحابه – الذين نسميهم بلغتنا الحديثة: طلابًا، مع وجود فوارق في الدلالات بين الاسمين – ثمانمئة من الصحابة والتابعين[3]، ولئن استفتاه كبار الصحابة في المسائل فإنه أصبح بعد ذلك من رؤوس

---

(١) الإصابة ٧/ ٣٥٩.

(٢) البخاري ٣/ ٥٢ كتاب البيوع، باب ما جاء في قول الله تعالىٰ (فإذا قضيت الصلاة...) ح٢٠٤٧.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٥٧٩.

الفتوىٰ، قال زياد بن مِينا: (كان ابن عباس وابن عمر وأبو سعيد وأبو هريرة وجابر مع أشباهٍ لهم يفتون بالمدينة، ويحدثون عن رسول الله ﷺ من لدن توفي عثمان إلىٰ أنْ توفوا)[1].

وحين تُكُلِّم في أبي هريرة ﷺ عقب الذهبي بقوله: (هذا لا شيء، بل احتج المسلمون قديمًا وحديثًا بحديثه، لحفظه وجلالته وإتقانه وفقهه، وناهيك أنَّ مثل ابن عباس يتأدب معه، ويقول: أفتِ يا أبا هريرة. وأصح الأحاديث ما جاء: عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة. وما جاء عن: أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة. وما جاء عن: ابن عون، وأيوب، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة. وأين مثل أبي هريرة في حفظه، وسعة علمه؟)[2].

ولا يخفىٰ علىٰ القارئ الكريم أنَّ أبا هريرة ﷺ كان من فقراء المدينة، ومن أهل الصُّفَّة الذين أوجعهم الجوع، وحديثه في تعرضه لأبي بكر وعمر، ثم تعرضه للنبي ﷺ في طريقهم طمعًا في أن يظفر منهم بدعوة له يستضيفونه ليأكل ما يسد جوعته؛ مثبت في صحيح البخاري[3].

---

(١) المصدر السابق ٢/ ٦٠٧.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٦٠٩.

(٣) ٨/ ٩٦ كتاب الرقاق، باب كيف كان عيش النبي ﷺ وأصحابه وتخليهم عن الدنيا ح٦٤٥٢.

فتأمل أيها المبارك! رجل تبدأ مسيرته العلمية في سن الثلاثين، لا مسكن يؤويه إلا المسجد، ولا مال لديه، وقد فاتته مشاهد كثيرة، ومجالس عزيزة، ثم هو يسابق السابقين ويتقدم المقدَّمين، فيصير المقدم حفظاً وعلماً، ويصبح في مصاف المكثرين من العلم والفضل.

التغيير هو قرارك أنت

مع كل الظروف غير الملائمة لمسابقة الكبار، وفق الله تعالىٰ أبا هريرة ﷺ لإبصار الفرص الموجودة في محيط ظروفه، فوجوده في مسجد رسول الله ﷺ يهيئ له لقاءه برسول الله ﷺ إضافة إلىٰ فراغه من الشغل، إذ لم يكن يملك مالاً ولا متاعاً ولا عقاراً، فصنع من هذه المعطيات قراراً غيَّر حياته بالكلية، وهذا القرار يتمثل في ملازمته لرسول الله ﷺ وحفظ حديثه، واشتغاله بطلب العلم.

وهذا القرار التاريخي في حياة فردٍ كأبي هريرة ﷺ يتطلب إصراراً وتحملاً لمشاق الطريق الموصلة للطموح والأهداف. إنها ليست بالأماني ولا بالرغبات ولا بالخيالات، وإنما إنفاق حر المال وربيع العمر وأطيب الأوقات في سبيل الارتقاء والتعلم والنمو، وقد كان طلب العلم وحفظ الحديث يمثلان البرنامج اليومي لأبي هريرة ﷺ، فقد قال: (إني لأجزئ الليل ثلاثة أجزاء: فثلثٌ أنام، وثلث أقوم،

وثلث أتذكر أحاديث رسول الله ﷺ)[1]. وقد ذكر في سابق المنقول عنه أنه لازم النبي ﷺ علىٰ ملء بطنه، والملازمة تعني التفرغ من شغل ما سواه.

إنَّ مؤهلك القديم ليس كافياً وحده لأنْ تكون في المقدمة، أياً كان هذا المؤهل: الشهرة والخبرة والشهادة وسائر المؤهلات كالجاه والشرف ونحوهما. فإنَّ عجلة الحياة لا تقف، والإيمان يزيد وينقص ولا يقف، وإنَّ التحولات والتغيرات مستمرة، وإنَّ الداخلين في المنافسة لا يحصون، وإنك إما أنْ تكون مؤثراً أو متأثراً، لذا فإنَّ عليك أنْ تتخذ قرارك في التغيير، القرار الذي أنضجته الخبرة والمعرفة والمشورة، وإنَّ عليك أنْ تتحمل تبعاته ومشاقه. هكذا علمنا المثابرون.

الارتقاء هو مسؤوليتك أنت

قد يظن بعض الأفراد العاملين – سواء كانوا مربين أو غير مربين – أنَّ مسؤولية ارتقائهم الذاتي تقع علىٰ عاتق الجهة التي ينتمون إليها، والمنظمة التي يعملون فيها.

وعند تحليل الأمر ونصب الميزان الحق؛ فإننا نجد أنَّ علىٰ منظومة العمل أنْ تسهم في بناء الفرد العامل، وأنْ تقدم له ما تستطيعه

(١) سنن الدارمي ١/ ٨٧ المقدمة، باب العمل بالعلم وحسن النية فيه رقم ٢٦٩.

من وسائل الارتقاء الذاتي، فهو - أي الفرد العامل - ابنها الذي تؤويه وتحتضنه، فوجب عليها أنْ تسهم في بنائه وتنميته، ولكنها غير مسؤولة بالدرجة الأولىٰ عن ذلك.

أما المسؤولية التامة في مسألة الارتقاء الذاتي فإنما تقع علىٰ الفرد ذاته، فهو المسؤول الأول عن نفسه، وسيحاسب عنها في آخرته، ولا يُسأل الآخرون عنْ جهله وخوائه وضعفه وتخلفه! وهذا من أبرز الدروس المستفادة من عرض هذا المفهوم في حياة أبي هريرة ﷺ.

وأعظم شيء يقدمه الفرد لنفسه أنْ يستمر في الارتقاء، ويستزيد منه، ولا يقف عند خطة واحدة، سواء كان ارتقاؤه بالتعلم أو بالتنفل أو بمهارات الدعوة والتعليم والجهاد والإحسان، ولهذا أمر الله جل وعلا نبيه ﷺ أنْ يستزيد من العلم ويسأله سبحانه الزيادة، فقال تعالىٰ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

ولئن كانت مسألة التعلم صعبة علىٰ نحو ما سابقًا؛ فإنها اليوم أسهل ما يكون، ولم تعد توجد صعوبة، إلا في اتخاذ قرار التغيير، والإصرار علىٰ الاستمرار في هذا السبيل. ويستطيع الفرد اليوم أنْ يحضر مجالس العلم بنفسه، أو من خلال البث علىٰ الإنترنت، كما أنَّ بإمكانه قراءة الكتاب مطبوعًا أو منشوراً علىٰ الشبكة، وهكذا كثير من الأمور أتيحت اليوم لم تكن متاحة فيما سبق علىٰ هذا النحو، وقس

علىٰ ذلك كافة مسارات الارتقاء، ولم يتبقَ عليك سوىٰ أنْ تجعل هذا الهمَّ برنامجًا يوميًا يرقيك وينميك.

وبالعودة إلىٰ منظومة العمل التي ينتمي إليها الفرد العامل؛ يأتي السؤال: ما الذي يجب علىٰ منظومة العمل فعله تجاه الفرد العامل؟

والجواب يمكن تلخيصه في عدد من النقاط:

١. إيجاد الحافز الدائم للتعلم والارتقاء الذاتي.

٢. إكساب الأفراد ملكات التعلم والارتقاء الذاتي.

٣. إشاعة مبدأ: إما أنْ تتقدم أو تتأخر ولا خيار غيرهما.

٤. جزء من برامج المستفيدين تهدف إلىٰ الارتقاء الذاتي.

٥. أنْ تكون منظمة العمل في ذاتها متعلمة علىٰ الدوام.

٦. ألَّا تكون مساحة العامل طاغية علىٰ مساحة الارتقاء الذاتي.

٧. الإسهام في الارتقاء بالأفراد من خلال بعض الوسائل.

هذا ما يمكن أنْ تقدمه منظمة العمل للأفراد أو بعضه. أما أنْ يتكئ الفرد عليها في بنائه كليًا فهذا غير صحيح، بل هو الوهم والعجز وشيء من لوثة التصوف التي تسربت عبر الأجيال المتأخرة إلينا.

ومن أبرز الدروس من عرض هذا المفهوم في حياة أبي هريرة رضي الله عنه - كذلك - أنَّ المعلمين والمربين، والدعاة والعاملين لا يجوز لهم

أنْ يتوقفوا عن التعلم والتطوير الذاتي والارتقاء، وإلا خبا وهجهم وانطفأ نورهم، إذ يمثل التعلم المستمر المولد الكهربائي الذي يمدهم بالطاقة والنور.

وكان أمره فرطاً

ثمة فكرة خاطئة تجوب عقول بعض المعلمين والمربين والدعاة والعاملين، مفادها أنَّ العمل والاشتغال بواجباته مُعذِر في ترك سبيل الارتقاء والتغيير والتطوير، وهذا لعَمْرُ الله أفضىٰ بهم إلىٰ الانطفاء والضمور بعد أنْ كان وهجهم لا يقاوم.

قال الحسن في قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ﴾ [الشَّرح:٧]: أمَرَه إذا فرَغ من غزوه، أن يجتهد في الدعاء والعبادة[1].

في التربية الإسلامية لا توقُّفَ عن الارتقاء والازدياد من الفضائل، ومن دقيق تربية الله تعالىٰ لعباده المؤمنين أنْ نهاهم عن صحبة ناسٍ من شأنهم التفريط في أعمارهم، والضياع في أوقاتهم، والدنو في اهتماماتهم، لأن الطبع سرَّاق، وتسرب الصفات بين الأصحاب أمر معروف، قال الله تعالىٰ: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ

(١) تفسير الطبري ٢٤/ ٤٩٨.

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف:٢٨]، قال ابن كثير رحمه الله: (ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا، أي: شُغل عن الدين وعبادة ربه بالدنيا. واتبع هواه وكان أمره فرطًا، أي: أعماله وأفعاله سفهُ وتفريط وضياع، ولا تكن مطيعًا له ولا محبًا لطريقته، ولا تغبطه بما هو فيه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [طه:١٣١])[1].

كما أنَّ البطالة مضرة؛ فإنَّ صحبة البطّالين كذلك.

* * *

(١) تفسير ابن كثير ٥/ ١٥٤.

ديوان العرب

روي عن عمر بن الخطاب ﷺأأنه كتب إلىٰ أبي موسىٰ الأشعري ﷺ قائلاً: (مُرْ مَن قِبلَك بتعلُّم الشِعر؛ فإنه يدلُّ علىٰ معالي الأخلاق، وصواب الرأي، ومعرفة الأنساب)[1].

وعمر بن الخطاب ﷺ كما كان صاحب نظرية إدارية فهو أيضاً صاحب نظرية تربوية؛ نحن أحوج إلىٰ سبرها واستقرائها وتحليلها والاسترشاد بها في عملنا التربوي. ومن ذلك حرصه ﷺ علىٰ المحافظة علىٰ ثقافة العَرب وأخلاقهم التي أقرَّهم عليها الإسلام، واختار أهلها من بين الأمم ليكون منهم خاتم رسله ﷺ والصفوة من أصحابه، ثم تممها وسما بها إلىٰ الكمال، وقوَّم ما اعوجَّ منها، قال أبو عثمان النهدي: (أتانا كتابٌ من عمر بن الخطاب ونحن بآذربيجان مع عتبة بن فرقد: أما بعد، فاتزروا وانتعلوا وارتدوا، وألقوا الخفاف والسراويلات، وعليكم بلباس أبيكم إسماعيل، وإياكم والتنعم، وزي العجم، وعليكم بالشمس، فإنها حمام العرب، وتمعددوا واخشوشنوا واخلولقوا، واقطعوا الركب، وانزوا علىٰ الخيل نزواً، وارموا الأغراض، وامشوا ما بينها)[2].

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه لابن رَشِيق القيرواني (ت:٤٦٣هـ) ١/ ٢٩.

(٢) السنن الكبرىٰ للبيهقي ١٠/ ٢٥ كتاب السبق والرمي، باب التحريض علىٰ الرمي ح١٩٧٣٨.

والشعر ديوان العرب، وهو (من بين الكلام كان شريفاً عند العرب. ولذلك جعلوه ديوانَ علومهم وأخبارهم، وشاهدَ صوابهم وخطئهم، وأصلاً يرجعون إليه في الكثير من علومهم وحكمهم، وكانت ملَكته مستحكمة فيهم شأن الملَكات كلها)[1].

ولذلك يحسن بشباب الإسلام أنْ يكون لهم سماع واطلاع علىٰ عيون الشعر العربي المتقدم والمتأخر والمعاصر، لا سيما في عصرٍ شاعت فيه الأغاني وما يشبهها مما إنْ لم تكن محرمة حرمةً واضحة فهي أقرب إلىٰ الحرام منها إلىٰ الحلال، أو هي من المشتبهات، ناهيك عن ركاكة الأسلوب، وتكسُّر الألفاظ، وضعف الاهتمام بالقيم، بينما عيون الشعر العربي تُكسب سامعها الفصاحة والبلاغة ومتانة الألفاظ، كما تبعث علىٰ الأخلاق العربية الرفيعة والمبادئ الإسلامية الجليلة لما فيها من الجزالة والعمق وقوة التصوير، وهي أيضاً تحدثك عن تاريخ القوم وأيامهم.

قال أحمد بن يحيىٰ ثعلب: (كنتُ أحب أن أرىٰ أحمد بن حنبل، فصِرتُ إليه، فلما دخلت عليه قال لي: فيمَ تنظر؟ فقلت: في النحو والعربية. فأنشدني أبو عبد الله أحمد بن حنبل:

---

(١) مقدمة ابن خلدون ١/ ٧٨٥.

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقلْ

خلوت ولكن قل عَلَيَّ رقيبُ

ولا تحسبنَّ اللَّه يُغفِلُ ما مضىٰ

ولا أن ما تخفىٰ عَلَيْهِ يغيبُ

لَهَوْنا عن الأيام حتىٰ تتابعتْ

ذنوبٌ علىٰ آثارهنَّ ذنوبُ

فيا ليتَ أنَّ اللَّه يغفرُ ما مضىٰ

ويأذن فِي توباتنا فنتوبُ)[1].

فهذا مثال علىٰ تأثير الشعر العربي علىٰ إمام من أئمة المسلمين، كان يتمثل به ويردده لما فيه من معاني الرقابة الإيمانية الذاتية، ومحاسبة النفس، ومقتها في ذات الله، ورجاء التوبة والمغفرة، وهو أيضاً برهان علىٰ أنَّ الشعر القيم لا يتضاد مع الوحي المنزل، وأنَّ له تأثيراً علىٰ النفس والسلوك.

حكمة الشعر الجاهلي

عن عمرو بن الشريد، عن أبيه، قال: (ردفت رسولَ الله ﷺ يوماً، فقال: «هل معك من شعر أُميَّة بن أبي الصَّلْت شيء؟». قلت: نعم،

---

(١) تاريخ بغداد ٦/ ٤٤٨.

قال: «هِيه». فأنشدته بيتًا، فقال: «هيه». ثم أنشدته بيتًا، فقال: «هيه». حتىٰ أنشدته مئة بيت)[1]. وأمية بن الصلت أدرك الإسلام لكنه مات علىٰ الكفر ولم يؤمن. (ومقصود الحديث أنَّ النبي ﷺ استحسن شِعر أُمية، واستزاد من إنشاده لما فيه من الإقرار بالوحدانية والبعث، ففيه جواز إنشاد الشعر الذي لا فحش فيه وسماعه، سواء شعر الجاهلية وغيرها، وأنَّ المذموم من الشعر الذي لا فحش فيه إنما هو الإكثار منه، وكونه غالبًا علىٰ الإنسان، فأما يسيره فلا بأس بإنشاده وسماعه وحفظه)[2]. وأنت تلحظ أنَّ إنشاد هذا الشعر قد طلبه النبي ﷺ وهو في حالة ربما احتاجت النفس فيها إلىٰ ما ينشطها، فاختار ﷺ شعر أمية بن أبي الصلت. وليس المقصود بالإنشاد التلحين، وإنما هو رفع الصوت بالشعر[3].

وهكذا الجِواء التربوية ربما احتاجت فيها النفوس إلىٰ ما ينعشها وينشطها، ألا فليكنْ منْ ذلك شعر يُطرب النفس، ويغرس القيم في آنٍ معًا.

أليس من الحَسن أنْ يطرق آذانَ الطلبة قولُ عنترة العبسي في المروءة:

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٧٦٧ كتاب الشعر ح٢٢٥٥.
(٢) شرح النووي ١٥/ ١٢.
(٣) انظر: لسان العرب ٣/ ٤٢٢.

هـلَّا سألتِ الخيلَ يا ابنةَ مالك

إنْ كنتِ جاهلـةً بما لم تعلـمي

يخبرْكِ من شهِد الوقيعـةَ أنني

أغشىٰ الوغىٰ، وأَعِفُّ عند المغنمِ

فهو إنْ نادت الحرب والأزمات رجالها غشيها غير حاذر ولا جبان، فإذا انجلت الحرب عن نصرٍ ومغنم عفَّت نفسه عن ذلك المغنم، لكرم نفسه وسموها.

ويقول في نفس معلقته المشهورة:

أَثنـي علـيَّ بما علِمـتِ فإنني

سـهـلٌ مخالقتي إذا لـم أُظـلـمِ

فـإذا ظُلمتُ فـإنَّ ظلمي باسلٌ

مُـرٌّ مـذاقـتُـه كطعم العلقـمِ

فهو يتحدث عن سماحة نفسه، وطيب معشره، ولينه مع الناس، ما لم يقع الظلم عليه؛ فإذا وقع عليه ظلم فإنه لنْ يبقىٰ علىٰ تلك السماحة واللين، إذ لا يقبل من كائنٍ من كان أنْ يمسَّ كرامته، ويخدش وجه مكانته. وهذا معنىٰ رائع، لولا أنَّ الإسلام جاء بأكمل منه وأهدىٰ، وهو احتمال الأذىٰ، والصبر علىٰ الظلم احتساباً لوجه الله تعالىٰ،

ولم يمانع مِنْ أخذ المظلوم حقه، وانتصاره ممن ظلمه، كما هو معلوم. ويبقىٰ أنَّ اقتران السماحة بالعزة مطلب شرعي كما كان من الأخلاق النبيلة عند العرب، والتي يتغنون بها ويفاخرون بها.

ويقول في قصيدة أخرىٰ:

لا يحملُ الحقدَ مَنْ تعلو به الرُّتَبُ

ولا ينالُ العُلَىٰ مَنْ طبعُه الغضبُ

إلىٰ أنْ قال:

اليومَ تعلــمُ يا نعمــان أيُّ فتىٰ

يلقىٰ أخاك الذي قد غره العصبُ

فتىٰ يخوض غبار الحرب مبتسمًا

وينثني وسنـانُ الرمـح مختضِـبُ

إنْ سلَّ صارمَه سالتْ مضاربُــه

وأشرق الجو وانشقـت له الحجبُ

والخيلُ تشهد لي أني أُكفكفهــا

والطعـن مثل شرار النار يلتهبُ

إذا التقيتُ الأعـادي يوم معركـة

تركتُ جمعَهـم المغـرور يُنتهـبُ

لي النفوسُ وللطير اللحوم وللـ
ـوحش العظام وللخيَّالة السَّلَبُ

لا أَبعدَ الله عن عيني غطـارفة
إنســًا إذا نزلوا، جنـًا إذا ركبـوا

أُسـودَ غابٍ ولكنْ لا نُيوبَ لهم
إلا الأسنَّـةُ والهنديةُ القضبُ

كم هو جميل أنْ يجد الطلبة هذه الأبيات وما إليها في أدبياتهم ومجالسهم، بشكلٍ أو بآخر! كم هو جميل أنْ تُغرس القيم النبيلة والأخلاق الكريمة علىٰ شكل أبيات تُنشد بصوت شامخ! أليست هذه المعاني مما نرجو تمثلها في شباب الإسلام!؟

تفوق الشعر الإسلامي

لما نزل القرآن الكريم تغير ميزان الشعر، بل وقف الشعر قليلاً علىٰ أعتاب الوحي مدهوشًا من هذا النظم الذي لم يسبق إليه، ومع ذلك فاق كل نظم ونثر، وأعيا كل فصيح وبليغ، ثم أفاد منه وانطلق مرة أخرىٰ. يقول ابن خلدون رحمه الله تعالىٰ: (ثم انصرف العرب عن ذلك [يقصد ما كانوا عليه من تنافس رؤسائهم في الشعر والبلاغة] علىٰ أوَّل الإسلام بما شغلهم مِن أمر الدين والنبوة والوحي، وما أدهشهم من أسلوب القرآن ونظمه، فأُخرسوا عن ذلك، وسكتوا عن

الخوض في النظم والنثر زمانـًا. **ثم استقرّ** ذلك وأُونِس الرشد من الملَّة. ولم ينزل الوحي في تحريم الشعر، وحظره، وسمعه النبي ﷺ وأثاب عليه، فرجعوا حينئذٍ إلىٰ ديدنهم منه)[1].

ثم ازدادت لغة المسلمين العرب من صدر الأمة حُسنـًا بعد تعلمهم كتاب الله تعالىٰ وجلوسهم إلىٰ النبي ﷺ، فأبدعت قرائحهم خيراً مما أبدعته العرب قبل الإسلام، قال ابن خلدون رحمه الله تعالىٰ: (والسبب في ذلك أنَّ هؤلاء الذين أدركوا الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللَّذين عجز البشرُ عن الإتيان بمثليهما، لكونها ولجت في قلوبهم، ونشأت علىٰ أساليبها نفوسُهم، فنهضتْ طباعهم، وارتقت ملكاتهم في البلاغة علىٰ ملكات مَن قبلهم من أهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة ولا نشأ عليها، فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسنَ ديباجة، وأصفىٰ رونقـًا من أولئك، وأرصف مبنىٰ وأعدل تثقيفـًا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة)[2].

فإذا استحسنا إنشاد النافع من شعر الجاهلية فإنَّ استحساننا لإنشاد الشعر الإسلامي من باب أولىٰ، وهو كثير واسع باتساع الدولة الإسلامية زمانـًا ومكانـًا، وفيه من الحِكم والعِظة والحماسة

---

(١) المقدمة ١/ ٨٠٤.

(٢) المقدمة ١/ ٧٩٨.

والحث علىٰ كريم الأخلاق وجليل الخصال ما تنوء بتدوينه الكَتبة والجامعون، سواء كان ذلك في صدر الأمة، أو كان مما يلقىٰ في طريق الدعوة الإسلامية قديماً وحديثاً.

فمن أمثلة شعر الزُّهديات قول أبي العتاهية:

إلـــهي لا تعذبني فـــإني
مُـقـرٌّ بـالـذي قـد كــــان مني
فـمـا لـي حـيـلـةٌ إلا رجـائي
لعفوك إنْ عفوتَ وحُسنُ ظني
وكـم مِـن زلـةٍ لي في الخطايـا
وأنــت عـلـيَّ ذو فضـــلٍ ومـنِّ
إذا فـكـرتُ فـي نـدمي عليهــا
عضَضتُ أناملي وقرعتُ سني
يظن النـــاس بي خـيـراً وإنـي
لشرُّ النـــاس إنْ لم تعــفُ عني

ومن أمثلة شعر الفخر قول أبي العلاء المعري:

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعلُ
عفـافٌ وإقــدام وحـزم ونائلُ

تُعدُّ ذنوبي عند قومٍ كثيرة
ولا ذنبَ لي إلا العُلىٰ والفضائلُ
وإني وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُه
لآتٍ بما لم تستطعْهُ الأوائلُ
وأَغدو ولو أنَّ الصباحَ صوارمٌ
وأَسري ولو أنَّ الظلامَ جحافلُ
وإني جوادٌ لم يُحلَّ لجامُه
ونصْلٌ يمانٍ أغفَلتْهُ الصياقلُ

إلىٰ آخر ما قاله من أعذب الشعر، وهي قصيدة تستحق أنْ يحفظها شباب الإسلام اليوم، لتكون كالجرس المنبه يذكره دوماً بأنَّ له شأناً في هذه الحياة.

ومن أمثلة شعر الحكمة قول بشار بن بُرد:

إذا كنتَ في كل الأمور معاتباً
صديقَك لم تلقَ الذي لا تعاتبُه
فعِشْ واحداً أو صِلْ أخاك فإنه
مقارفُ ذنبٍ مرةً ومجانبُه

إذا أنت لم تشرب مراراً علىٰ القذىٰ

ظمئتَ وأيُّ الناس تصفو مشاربُه

ومَن ذا الذي تُرضىٰ سجاياه كلُّها

كفىٰ المـــرءَ نُبلاً أنْ تُعـَّ معايبُـه

ومِن أمثلة شعر الحماسة قول المتنبي:

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقــفٍ

كأنك في جفن الـردىٰ وهو نائمُ

تمـرُّ بك الأبطـالُ كلمَىٰ هزيمـةٍ

ووجهُك وضـاحٌ وثغـرك باسـمُ

بضربٍ أتىٰ الهاماتِ والنصر غائب

وصار إلىٰ اللبات والنصر قـــادم

نثرتـهـمُ فــوق الأُحيدب نثـرة

كما نُثرت فوق العروس الدراهم

كما أنَّ ثمة قصائد تستحق أنْ تحفظ بكاملها، لما فيها من الحكمة والحماسة، كقصيدة صفي الدين الحلي التي يمدح فيها الملك الصالح، وجاء في مطلعها:

لا يمتطي المجدَ مَن لم يركب الخطَرا

ولا ينالُ العُلىٰ مَن قدَّم الحَذرا

فمثل هذه الأبيات والقصائد من أعذب الشعر، ومن عيونه؛ مما يحسن أنْ تطرق أسماع الطلبة، وتزاحم ما امتلأت به أسماعهم من رديء القول، وسفساف المعاني.

حفاظاً على هويتنا

في أدبنا الإسلامي المتقدم والمتأخر والمعاصر مادة وافية لهذه الأغراض الشعرية، وتعتبر متممة مفيدة في غرس قيمنا التربوية، ما عدا أغراض الغزل والرثاء؛ فإنها تهيج العاطفة دون معنىٰ مستفاد في محاضن التربية، إلا إذا استثنينا ما تضمنت فخراً كالقصيدة التي رثا فيها أبو تمام القائدَ محمد بن حميد الطائي، والتي جاء في مطلعها:

كذا فليجلَّ الخطب وليفدح الأمر

فليس لعين لم يفض ماؤها عُذرُ

ومهما يكن؛ فإنَّ للطالب أُذناً تطرب لما تسمع، وتتأثر بما يُلقىٰ عليها، وإنَّ مرور هذا النمط من أشعار العرب علىٰ أُذنه سيكون له أثر عميق علىٰ مدىٰ الزمن، إذ تستدعي ذاكرته في المواقف المختلفة ما يناسبها من هذا الشعر الذي قد مرَّ عليه وحفظه، أو تذكر معناه، فيكون باعثاً له علىٰ فعل الخير، مانعاً له عن فعل الشر، كما أنَّ الشعر

يخاطب الوجدان، ويرسخ القيم في العقل الباطن، وبهذا - إضافة إلىٰ الرصيد الإيماني - يكون قد أوجد لنفسه من التحفيز الذاتي ما يغنيه عن كثير من التوجيه والمتابعة.

كما أنَّ ذلك سيكوِّن للطالب ذائقة أدبية، ولغة فصيحة، ومخزونـًا جيداً؛ يستفيد منه في قادم الأيام، حين يتربع علىٰ كرسي التأثير والتوجيه.

وليس لزامـًا أنْ يتم ذلك عبر برامج مقصودة فقط، بل يضاف إلىٰ ذلك تضمين مقالنا وتوجيهنا ومواقفنا بأبيات الشعر النافعة، وإذا أحب الطلبة أستاذهم فإنه سيَسهُل عليهم تشرب ألفاظها ومعانيها، وهذا يتطلب أنْ يتزود المعلم بمخزون كافٍ من الشعر العربي.

إنَّ شباب الإسلام اليوم يتعرض إلىٰ موجات مسخٍ تستهدف هويته، وإنَّ طرق هذا الباب سيفتح لنا أُفقـًا واسعـًا في حفظ الهوية والثقافة العربية التي أقرها الإسلام، وجاء متممـًا ومكملاً لها.

* * *

تأثير اللسان
في استقامة الإنسان

قال يونس بن عبيد: (لا تجد من البر شيئًا واحداً يتْبعُه البرُ كله غير اللسان، فإنك تجد الرجل يكثر الصيام ويفطر علىٰ الحرام، ويقوم الليل ويشهد بالزور بالنهار،... - وذكر أشياء نحو هذا - ولكن لا تجده لا يتكلم إلا بحق؛ فيخالف ذلك عمله أبداً)[1].

ويونس بن عبيد من صغار التابعين وفضلائهم، وثَّقه أئمةُ الحديث كأحمد بن حنبل ويحيىٰ بن معين، وقال عنه الذهبي: الإمام القدوة[2]. وكما أنَّ سيرته كانت جديرة بهذا الوصف فإنَّ أقواله لا تقل جمالاً وجلالاً، فهي تمثل خلاصة خبرته بالشريعة وطريقتها في تزكية النفوس والمجتمعات، ومنها هذه الجملة التي لخصت ما فهمه عن تأثير اللسان في استقامة الإنسان، ومثلها قوله: (ما رأيتُ أحداً لسانُه منه علىٰ بالٍ إلا رأيتُ ذلك صلاحًا في سائر عمله)[3].

ومفاد هاتين الجملتين من كلامه رحمه الله أنَّ استقامة اللسان هي العمل الصالح الوحيد الذي إذا تحقق في إنسان فإنه حتمًا ستصلح سائر أعماله، وستنتظم في مفهوم البر. وهذا لا يكون مزية إلا في

(١) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٩١.
(٢) المصدر السابق ٦/ ٢٨٨.
(٣) جامع العلوم والحكم ٢/ ١٤٦.

استقامة اللسان، ولا يكون مزية لغيره من الأعمال الصالحة ولو بلغت الذروة في الفضل، ويصدقه قول رسولنا ﷺ فيما رواه عنه أبو سعيد الخدري ﷺ: «إذا أصبح ابن آدم فإنَّ أعضاءه تُكفِّر اللسان؛ تقول: اتق الله فينا، فإنك إن استقمت استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[1].

إذن، نحن بصدد عملٍ ترتبط به سائر الأعمال، وتتعلق به جميع الجوارح والأعضاء، فهي تبع له، وصلاحها وفسادها منوط به، وهذا أمرٌ يدعو إلىٰ التفكر جيداً في العناية الشرعية باستقامة اللسان وضبطه والاهتمام به، إذ يتبين لك من قراءة الحديث السابق أنَّ استقامة الجوارح والأعضاء لا تكون ما دام اللسان يتفلت في المحاذير والمكاره.

وأعظم من هذا: استقامة القلب! فإنَّ الشريعة أناطت استقامة القلب باستقامة اللسان، وجعلتهما قرينين متلازمين، كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ فيما رواه أنس بن مالك ﷺ قال: «لا يستقيم إيمان عبد حتىٰ يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتىٰ يستقيم لسانه»[2].

وهذه الخلاصة المفاهيمية نطق بها غير واحد من السلف الصالح، قال الحسن البصري: (اللسان أميرُ البدن، فإذا جنىٰ علىٰ الأعضاء شيئًا جنت، وإذا عفَّ عفت). وقال يحيىٰ بن أبي كثير: (ما صلح

(١) أخرجه أحمد في المسند ٥/ ٢٨٣ – ترتيب الشامي، ح٧٨٤٠.
(٢) أخرجه أحمد في المسند ١/ ٤٦ – ترتيب الشامي، ح١٢.

منطقُ رجل إلَّا عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطقُ رجل قطُّ إلَّا عرفت ذلك في سائر عمله)[1].

ضبط اللسان

استقامة القلب والجوارح هي مقصد التربية الإسلامية، وهي معنىٰ أنْ يكون الإنسان صالحـًا، ومن معانيها أيضـًا أنْ يكون الإنسان رقيبـًا علىٰ نفسه، مجاهداً إياها في تلمس مراضي الرب، وتجنب مساخطه.

وهذا المعنىٰ يكون بأمورٍ، من أهمها وأعلاها: التربية علىٰ ضبط اللسان، أي التربية علىٰ أنْ يكوِّن المؤمن رقابة ذاتية علىٰ كلماته وأحاديثه، فلا ينطق إلا بالحق وبما يرضي الله، ولا يقول ما يسخط الله، ولا ما لا يرجو به ثواب الله.

ضبط اللسان هو من أصعب الأعمال التي تأخذ حيزاً كبيراً من المجاهدة والمصابرة بغرض الوصول إلىٰ تحقيقه في النفس، ذلك أنَّ التلفظ بالكلمات سهل يسير ولا يكلف جهداً ولا مالاً، بل ربما أحدث ابتهاجـًا وأُنسـًا، قال الفضيل بن عياض: (ما حجٌّ ولا رباطٌ ولا جهادٌ أشدُّ من حبس اللسان)[2]؛ وعليه فإنه يستحق أنْ نمنحه أولوية عليا في المهام التربوية.

---

(١) جامع العلوم والحكم ٢/ ١٤٦.
(٢) المصدر السابق ١/ ٣٤١.

ومن ضبط اللسان: كفه عن القول الحرام، وهذا أول واجب في ضبطه، إذ لا يصح من المسلم أنْ يعتاد لسانه الغيبة أو البهتان أو النميمة أو الكذب أو السخرية أو المجون أو ما فيه دلالة علىٰ معصية. وهذه أمور ظاهرٌ تحريمها، وهي مما يتوجب في الماجريات التربوية أنْ يستوقف المعلمُ طلابَه عند الولوغ فيها. إنها من آكد المفاهيم التربوية، وهكذا كان ﷺ، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «قلت للنبي ﷺ: حسبك من صفية كذا وكذا، تعني قصيرة، فقال: «لقد قلت كلمة لو مُزجت بماء البحر لمزجته»»[1]. مثل هذه الكلمات تستوجب التوقف حال سماعها، وتنبيه قائلها علىٰ خطورة ما يقارفه. والله المستعان.

ومن ضبط اللسان: الامتناع عن فضول الكلام، وهو ما ليس له داعٍ، وقد نهىٰ عنه ابن مسعود ﷺ وقال: (حسب امرئ ما بلغ حاجته). أما النخعي فيرىٰ ذلك مُهلكًا للناس، فقال: (يهلك الناس في فضول المال والكلام). هذا هو فهم السلف الصالح رحمهم الله في مسألة فضول الكلام، فلا غرو أن يمسك أبو بكر الصديق ﷺ لسانه ويقول: (هذا أوردني الموارد)[2] أي المهالك.

---

(١) أخرجه أبو داود ٤/ ٢٦٩ كتاب الأدب، باب في الغيبة، ح٤٨٧٥.
(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٣٣٩.

ومن فضول الكلام: الحديث فيما لا يعنيك، وقد جعل النبي ﷺ ذلك نقصاً في إسلام العبد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[1]. **قال ابن رجب: (وأكثر ما يراد بترك ما لا يعني؛ حفظ اللسان من لغو الكلام)**[2].

وقد تفشىٰ في هذا الزمن الكلام فيما لا يعني، ذلك أنَّ وسائل الاتصال بلغت الذروة في سرعة نقل الأخبار والمعلومات وكثرتها وتنوعها، وحينما ينغمر العقل بكل معطيات هذه الأخبار والمعلومات فإنَّ اللسان يصعب عليه ألا يخوض فيها بتصدير المعلومات أو معالجتها.

وفي حقيقة الأمر أنَّ ما لا يعني يشمل كثيراً من حديث الناس، الذي يتسامرون به في المجالس، ويناقشونه في المنتديات من أخبار الساسة إلىٰ أخبار السوق، ومن أخبار الوظائف والأعمال إلىٰ أخبار البيوت والمجتمع؛ ما كان زائداً عن قدر الحاجة لو احتاج.

قال ابن الجوزي: (ولقد شاهدت خلقاً كثيراً لا يعرفون معنىٰ الحياة، فمنهم من أغناه الله عن التكسب بكثرة ماله، فهو يقعد في

---

(١) أخرجه الترمذي ٤/ ٥٥٨ كتاب الزهد، ح٢٣١٧.
(٢) جامع العلوم والحكم ١/ ٢٩٠.

السوق أكثر النهار ينظر إلىٰ الناس، وكم تمرُّ به من آفة ومنكر، ومنهم من يخلو بلعب الشطرنج، ومنهم من يقطع الزمان بكثرة الحوادث من السلاطين والغلاء والرخص إلىٰ غير ذلك، فعلمتُ أنَّ الله تعالىٰ لم يُطْلِع علىٰ شرف العمر ومعرفة قدر أوقات العافية إلا من وفقه وألهمه اغتنام ذلك، وما يُلَقّاها إلا ذو حظ عظيم)[1].

إننا ونحن في خضم هذه المعطيات **بحاجة إلىٰ تربية تؤكد علىٰ عبودية ضبط اللسان**، لأنه يرقق القلب، وينمي خوف الله ومراقبته، ويحفظ كفة الحسنات من النقصان، ويزيد في العقل والتفكر، ويجمِّل الأخلاق. أفلا يستحق شيء كهذا أن تكون له أولوية عليا في التربية الإسلامية!؟ ألا يمثل هذا شطر صفات المسلم الحقيقي!؟ وقد قال النبي ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده»[2].

خمرة الأحداث العامة

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: (ما الخمر صِرفًا بأذهب لعقول الرجال من الفتن)[3].

---

(١) صيد الخاطر، ص٣٠٥.

(٢) أخرجه البخاري ١/ ٢٠ كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، ح١٠.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٧/ ٤٧٥ كتاب الفتن، باب من كره الخروج في الفتنة وتعوذ منها، رقم (٣٧٣٣٤).

إنها الفتن التي تتعلق بعموم الناس والمجتمعات، والتي ينتج عنها اقتتال وعداوات بين المسلمين، والتي جاءت النصوص الشريفة بالتحذير من الولوغ فيها.

تقوم الألسن بالتهييج والإقناع من خلال الحديث التحليلي والتقويمي لأطراف الفتنة، هذا علىٰ مستوىٰ المجالس واللقاءات. أما علىٰ مستوىٰ القنوات وشبكات التواصل فتقوم الألسن بمهمة التلاعب بالعقول من خلال منتجة الأحاديث والأقاويل رقميًا، فتصيِّر الحق باطلاً، والباطل حقًا، ويقع المتابع فريسة للغمر الإدراكي الذي يستهدف عقله؛ كالخمرة، فيصطف مع إحدىٰ الطائفتين.

إنَّ مما ينبغي الاعتناء به في تربية الشباب **أنْ يتعودوا سلوك الصمت حال الفتنة، وحال التباس الحق بالباطل، لأنها مواطن الخصومات، وهدر المال والدم**، حتىٰ لا تعلق في ذممهم شيء من هذه الخصومات الضبابية. كيف وقد ذم الله العجلين في هذه المضايق فقال: ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ [النساء:٨٣] وكما ترىٰ؛ فإنَّ القرآن هنا يبرز أهمية جانبي العلم والعقل معًا، وذلك بالرجوع إلىٰ من يملكهما وهما أهل العلم والمعرفة، وإلا فإن خمرة التناول اللساني للأحداث

العامة ستورث الهلكة بين الناس، وهذا يعني - بالتأكيد - **الصمت إلىٰ حين تبيُّن الحق الناصع من الباطل الواضح**. وبعد ذلك يتخذ الفرد موقفه الشرعي.

وبعد.. فإنَّ من أهم مخرجات التربية الإسلامية: شاب طويل الصمت، كافٌّ لسانه عن قولة الحرام، متورع عن الحديث وقت الفتن، ولا يتكلم إلا بما يعنيه ويفيده، وإنَّ هذا السلوك الصالح سيورثه صلاحـًا في سائر أعماله وجوارحه، وصلاحـًا ورقة في قلبه. فاللهم سدد ألسنتنا.

* * *

فقه السيرة

قال علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: (كنا نعلَّمُ مغازي النبي ﷺ وسراياه كما نعلَّمُ السورةَ من القرآن)[1].

والمراد بالمغازي: ما وقع من قصد النبي ﷺ الكفارَ بنفسه أو بجيشٍ من قبله[2].

والمقصود أنَّ علي بن الحسين يقرر في هذه العبارة الموجزة أنهم كانوا يتلقون ضمن تعليمهم: مغازي الرسول ﷺ، **وأنَّ تعلُّمهم لها كان موازيًا في الأهمية لتعلُّم القرآن الكريم**، وما ذلك بنقص في استشعار أهمية القرآن، وإنما هو منهجية تربوية في تعليم العلوم وغرس القيم.

وهذا التقرير مهم للغاية، وقد علَّل المؤرخ الكبير صاحب الطبقات ابن سعد رحمه الله ذلك بقوله: (يا بني هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوها)[3]. فهي تمثل مجد الأمة الذي يجب أن تستحضره الناشئة في وجدانها، وشرفها الذي يجب أن تحافظ عليه مهما تباعد الزمان. إنها الضوء الذي لمع في فجر التاريخ الإسلامي، والذي أعقب الليل الداكن الذي أخبرنا عن طرف منه نبينا ﷺ كما في حديث عياض بن

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ٢٨٨.
(٢) فتح الباري ٧/ ٣٢٦.
(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ٢٨٧.

حمار المجاشعي ﷺ مرفوعـًا: «وإني خلقتُ عبادي حنفاءَ كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتهم أنْ يشركوا بي ما لم أُنزل به سلطانـًا، وإنَّ الله نظر إلىٰ أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»[1].

أولئك قــومٌ شيَّد اللَّهُ فخْـرهم

فما فوْقه فخرٌ وإنْ عَظُمَ الفخرُ

أُنـاسٌ إذا ما الدهر أظلمَ وجههُ

فأيديهِمُ بيضٌ وأوجهُهم زُهْـرُ

المجد والشرف والمآثر تصنع للشباب هوية، وتغذي فيهم سمو الشخصية، وتزيد في ثقتهم بأمتهم وبدينهم وبأنفسهم، إذْ يرون في أنفسهم امتداداً لتلك المآثر والأمجاد، فتنبعث فيهم النظرة الإيجابية، ويتوقد فيهم الأمل، ويتخلَّق الطموحُ والهمُّ. وهو الأمر الذي ينبغي أنْ يكون عليه شباب الإسلام؛ رغم المحن والفتن والبلايا.

كما أنَّ المغازي تحمل في طياتها الكثير من الأحكام الشرعية التي استجدت آنذاك، فهي تعتبر مورداً من موارد التشريع، فأحكام الجهاد والقتال هناك، ومنها عرفنا التيمم، وصلاة الخوف، وأحكام الأسرىٰ،

---

(١) أخرجه مسلم ٤/ ٢١٩٧ كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، ح٢٨٦٥.

وأدبيات الصلح، وغير ذلك. قال الخطيب البغدادي: (تتعلق بمغازي رسول ﷺ أحكام كثيرة، فيجب كتبها والحفظ لها)[1].

وتنبع أهمية المغازي أيضاً من أهمية بطلها وربانها وهو رسول الله ﷺ، فهو القدوة المطلقة، وهو المؤيد بالوحي، وهو المعصوم من الزلل، فسيرته ﷺ في تلك الأيام والليالي؛ وهو مرة يتقدم الصفوف، ومرة ينتصب قائماً يدعو بالنصر، ومرة يشارك في العمل والتهيئة، ومرة يرص الصفوف، ومرة يتلقىٰ الضرب؛ سيرة معيارية تقاس علىٰ ضوئها الأعمال والسير، فإذا نشأ الشباب علىٰ حفظ سيرته وتعلُّمِها فستكون لهم ملاذاً فكرياً ووجدانياً في المقايسة والمعايرة، وهذا من أهم أهداف التربية الإسلامية: صناعة النموذج والرمز الذي لا تشوبه الشوائب ﷺ.

أيامه ﷺ في المغازي لم تكن علىٰ نسق واحد، ففيها خوف وأمن، وفيها انتصر وهُزم، وفيها فرح وحزن، وفيها اقتحم وانكشف... إنك لن تجد مرحلة تعيش فيها الأمة الإسلامية صراعاً مع خصومها إلا وجدت لها أصلاً في تلك السيرة العطرة.

لذلك كانوا يعلمون المغازي كما يعلمون القرآن.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ٢٨٧.

آليات قراءة السيرة

اعتنت الحركة العلمية الإسلامية بدراسة سيرة النبي ﷺ ومغازيه وأيامه عناية فائقة بالغة، ومبكرة أيضـًا، حتىٰ كُتب وحُفظ عن دقائق سيرته ﷺ الشيء الكثير، فما بالك بالمهمات والكُبريات! لقد أفنىٰ جمع من أهل العلم من أصحاب الحديث ومن أصحاب المغازي وغيرهم نفيس أعمارهم في التتبع والتقييد، فجزاهم الله عنا خير الجزاء وأوفاه.

وفي المكتبة الإسلامية نوع من الدراسات في السيرة النبوية اعتمدت منهج التحليل واستدعاء العلوم الاجتماعية والجغرافية، وأحيانـًا ناقشت جهود المستشرقين البحثية في السيرة النبوية، فهي تمدُّ القارئ بامتدادات معرفية هامة ذات تأثيرات فكرية ووجدانية وسلوكية، منها علىٰ سبيل المثال كتاب (دراسة في السيرة) لمؤلفه: عماد الدين خليل.

وهذا النوع من الدراسات مما يجمل أنْ يكون في مقدمة قراءات الشباب للسيرة النبوية، لأنه يكسبهم ملكات التحليل وقراءة الأبعاد، فإذا ما راموا جرد المطولات في السيرة النبوية قراءةً استطاعوا أن يقرؤوها بتلك الملكات، فيظفروا بالكثير والكثير من الدروس والعبر، ذلك أنَّ كثيراً من قراءاتنا للسيرة النبوية هي قراءة سطحية غير لائقة بأحداث ولا بشخصية جعلهما الله تعالىٰ آية في الدهر.

أما لو سُئلت عن أفضل عرضٍ لسيرة النبي ﷺ لقلت لك: العرض القرآني!

العرض القرآني لسيرة النبي ﷺ هو الذي اختاره الله تعالىٰ لأنْ تكون تلاوته عبادة يؤجر المرء عليها، كما جعل تدبره وتعلمه وحفظه مواطن للأجر والثواب.

وإنك لتجد آيات القرآن - وهي تعرض غزوة بدر وأحد والأحزاب والحديبية وتبوك...؛ تضع في المقدمة عدداً من القضايا النفسية وأعمال القلوب وأدبيات الانتماء ومفاهيم الحركة، بما يصنع لتلك الأحداث الكبرىٰ عمقًا وامتداداتٍ لا غنىٰ لشباب الإسلام عنها، ففي سورة الأنفال يقول الله تعالىٰ تعقيبًا علىٰ غزوة بدر: ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۝٥ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ﴾ [الأنفال:٥-٦]، وفي سورة آل عمران يقول الله تعالىٰ تعقيبًا علىٰ غزوة أحد: ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، وسورة الفتح تعقيبًا علىٰ أحداث الحديبية الساخنة يقول الله تعالىٰ: ﴿لَّقَدۡ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ

﴿يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:١٨]. **وإنما أضرب لك أمثلة فحسب، وإلا فكل آيات القرآن التي تعرضت لسيرة النبي** ﷺ مليئة بالعبر والفقه.

ولقد كان إمام المغازي ابن إسحاق ومن ورائه ابن هشام وغيرهما حين يعرضون الأيام والمواقف يتجهون إلىٰ الآيات التي نزلت بشأنها مع شيء من التوضيح والتفسير، وهذا من أجلِّ مسالك قراءة السيرة، وقد أجاد وأفاد ابن القيم في كتابه زاد المعاد حين عرض مغازي النبي ﷺ مستنيراً بالعرض القرآني، لكنَّ هذا لا يغنيك عن قراءة ما دوَّنه أئمة التفسير تحت الآيات التي تعرضت لذلك.

ولا يزال مجال البحث وفق هذه الصورة متاحـًا؛ لأن سعة القرآن تحتم عدم الوقوف عند بحث ما، مهما أجاد وأفاد.

فهذه ثلاثة أنماط لقراءة السيرة تكمل بعضها بعضـًا، وجديرٌ أنْ يتملك الشباب أدواتها، بالتدريب والتعويد والتمرين.

يوميات الرسول

طرف وضَّاء من سيرته ﷺ لم تتعرض لدقائقه كتب المغازي، وهو الجانب الاجتماعي من حياته: يومه وماجرياته وعبادته وعشرته لأهل بيته وتعامله مع أصحابه، وأيضـًا تعليمه وإدارته، لكنك ستجد ذلك مبثوثـًا في كتب الحديث والشمائل، كما ستجده أيضـًا منثوراً

في آيات القرآن الكريم من مثل قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [الأحزاب:٣٧]؛ وما دوَّنه أئمة التفسير تحت هذه الآيات. وهو عظيم الأثر في التأسي به ﷺ في كافة أحواله اليومية، وتعلُّم ذلك من لوازم قول الله تعالىٰ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران:٣١].

هذه اليوميات السامية والحضارية هي الوحيدة التي تصلح لأنْ تكون محل الاقتداء والتعليم والنشر بدون تحفظ وتردد، وبدون فحص ونظر، فإنك لا تجد فيها ما لا يمكن أنْ يكون صالحاً للاقتداء، سواء كان ذلك بسبب تغير الزمان أو تغير الأحوال.

إنها اليوميات التي يتوجب علينا لفت أنظار الشباب نحوها، وتعليمهم إياها، وإبرازها لهم بصفتها النموذج والمعيار: كيف كان فرحه؟ وكيف كان حزنه ووجده؟ وكيف كان جِدُّه وهزله؟ وكيف كان صمته وكلامه؟ وكيف كان انقباضه وانبساطه؟ وكيف كان ينظر إلىٰ المال والعمران، والموت والحياة، والقرابة والأصحاب، والغنىٰ والفقر؟

هنا تتجلىٰ الشخصية المعيارية في بعدها الإنساني والاجتماعي، والتي من خلالها يتعرف الجيل علىٰ حضارية الرسالة المحمدية، فإذا صارت علىٰ هذا النحو في عقل الجيل ووجدانه فقد تحققت القدوة في نفوسهم، وهذا هو المطلوب.

تعميم السيرة

من إيجابيات الصحوة المباركة نشر السيرة النبوية، وتربية النشء علىٰ مضامينها، حتىٰ غدت في وجدان الشباب وعلىٰ ألسنتهم، وهذا معروف ملحوظ، أما لو أردت دليلاً محسوسـًا علىٰ ذلك فإنه من السهولة بمكان أنْ ترىٰ في أي مكتبة من مكتبات الجيل كتابـًا بعنوان: زاد المعاد في هدي خير العباد، لمؤلفه ابن القيم.

ولا نزال بحاجة إلىٰ تعميم سيرة النبي ﷺ علىٰ كافة المحاضن التربوية، العامة والخاصة، ذات المراحل العمرية الصغيرة والكبيرة، وتدعيم ذلك بالجديد من الدراسات والأبحاث والتآليف المتعلقة بها، وإبرازها - أعني السيرة النبوية - من خلال التقنيات الإعلامية الحديثة، لتتحقق لنا أهدافنا التربوية في ربط الناس بالنبي ﷺ معرفة وحبـًا واتباعـًا ودفاعـًا ودعوة وتربية.

* * *